

قَوَانِينُ

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ

سُنَنُ رَبَّانِيَّةٍ وَمَفَاهِيمُ قُرْآنِيَّةٍ

تَأَلَّفَ

أ. د. مُحَمَّدٌ قَاسِمٌ مُحَمَّدُودُ الْمَنَسِيِّ

أُسْتَاذُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِكَلْبَةِ دَارِ الْعُلُومِ - جَامِعَةُ الْفَاهِرَةِ



دَارُ السَّلَامِ

للطباعة والنشر والتوزيع والزججة

قَوَانِينُ

الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

سُنَنُ رَبَّانِيَّةٌ وَمَفَاهِيمُ قُرْآنِيَّةٌ

تَأْلِيفُ

أ. د. مُحَمَّدٌ قَاسِمٌ مُحَمَّدُودُ الْمَسْنِيّ

أُسْتَاذُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِكَلِيَّةِ دَارِ الْعُلُومِ

جَامِعَةِ الْفَاهِرَةِ

دَارُ السَّلَامِ

لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ وَالتَّرْجُمَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَهْرِسُ الْمَحْتَوَيَاتِ

٧	الإهداء
٩	مقدمة
١٣	تمهيد
١٥	- أولاً: في التعريف بالقوانين
٢٠	- ثانياً: في تدبر القرآن الكريم
٢٤	- ثالثاً: أهمية معرفة القوانين أو السنن
٢٧	الفصل الأول: قوانين تتعلق بالكون
٢٩	- قانون النسبية
٣٣	- قانون السببية
٣٨	- قانون التسخير
٤١	- قانون التعاقب
٤٤	- قانون الاختلاف والتنوع
٤٨	- قانون التساوي والتباين
٥٢	- قانون الاستخلاف
٥٦	- قانون المداولة والاستبدال
٦١	الفصل الثاني: قوانين تتعلق بالفرد والمجتمع
٦٣	- قانون الإحسان
٦٦	- قانون التسليم
٧٠	- قانون الكدح

٧٣	- قانون الكبَد
٧٦	- قانون الخروج عن طاعة الله
٨١	- قانون الظلم
٨٦	- قانون الترف
٨٩	- قانون الطغيان
٩٣	- قانون الرفق
٩٦	- قانون الحياة الطيبة
١٠٠	- قانون البر
١٠٥	- قانون التغيير الاجتماعي
١٠٩	- الفصل الثالث: قوانين التدبير الإلهي
١١١	- قانون الرزق
١١٥	- قانون البركة
١١٩	- قانون الفتنة والابتلاء
١٢٣	- قانون النعم
١٢٦	- قانون التدافع بين الناس
١٢٩	- قانون قبول الأعمال
١٣٣	- قانون التمكين
١٣٨	- قانون النصر
١٤٣	- قانون الأجل
١٤٦	- قانون الهداية
١٤٩	- قانون الضلال
١٥٢	- قانون المكر

١٥٦	 قانون الاستدراج
١٦١	 قائمة المراجع
١٦٥	 نبذة عن المؤلف



مُقَدِّمَةٌ

(١)

هذا الكتاب دراسة قرآنية، تستهدف استجلاء موضوع من أهم موضوعات القرآن الكريم، وهو موضوع « القوانين » أو « السُّنن الإلهية » التي تحكم الكون والإنسان والحياة.

ذلك أن القرآن الكريم - وهو يقدم نظريته المعرفية - وجَّه الأنظار إلى السُّنن أو القوانين الحاكمة، وبيَّن أهميتها في حياة الأفراد والأمم والحضارات، وطالَب بضرورة التعرُّف على هذه القوانين؛ لانتفاع بها في تحقيق التقدم الروحي والعقلي والاجتماعي للإنسان.

(٢)

وعند تتبُّع ما ورد في القرآن الكريم بشأن هذه القوانين يتضح لنا أنَّ هناك نوعين منها: « قوانين كونية » تتعلق بالكَوْن، وبكل ما فيه من أجزاء وعناصر تمثل الجانب المادي فيه، و« قوانين اجتماعية » تتعلق بالإنسان فرداً أو مجتمعاً أو أمة أو حضارة، تمثل الجانب الاجتماعي، وإذا كانت حركة الكَوْن المادي لا تستقيم من دون السُّنن والقوانين الكونية، فإن الحركة الاجتماعية لن يُكْتَب لها الاستقامة والسلامة إلا بالسُّنن والقوانين الإلهية، التي حكمت الكيان الإنساني في تاريخه الطويل على الأرض.

ومن هنا نفهم دعوة القرآن الكريم إلى التفكير والتدبُّر والسَّير في الأرض لدراسة تاريخ الأمم والحضارات السابقة، واكتشاف عناصر بقائها، أو سقوطها وفنائها، التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران:

(٣)

من هنا تأتي أهمية الاتجاه إلى تناول السُّنن والقوانين القرآنية بالدراسة والتحليل، الذي يستهدف اكتشاف البناء المتكامل لمنظومة القوانين الإلهية في المسار الإنساني؛ بغية الوقوف على القوانين التي تتحكم في هذا المسار بأبعاده كافة، سواء الفردية والمجتمعية والحضارية...

وعلى هذا؛ فإنَّ هذه الدراسة سوف تتناول عددًا من القوانين الإلهية ذات الصلة بالحركة الاجتماعية؛ كي تسهم في ترشيدها من ناحية، وتطوير مسيرة هذا العلم « علم القوانين والسُّنن الإلهية » من ناحية أخرى.

وقد جاء هذا الكتاب في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول: وقد تناول في المقدمة: أهمية الموضوع، وفي التمهيد: تناولت بعض المفاهيم المتصلة بالسُّنن والقوانين، ثم تناولت في الفصل الأول: القوانين المتعلقة بالكوْن، وفي الفصل الثاني: تناولت القوانين المتعلقة بالفرد والمجتمع، وفي الفصل الثالث: تناولت القوانين المتعلقة بالتدبير الإلهي.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذا التقسيم قام على منهج التغليب، وليس الفصل الصارم؛ إذ قد يتسع القانون الواحد لأكثر من جهة؛ لذا لزم التنويه بما سبق.

(٤)

لكن المشكلة الحقيقية التي تواجه المسلمين اليوم - وهم يقرؤون القرآن الكريم - هي: كيف ينظرون إلى قوانين الله تعالى التي تحكم شروط التقدم أو التخلف الحضاري؟ وكيف يمكن أن يتحوَّلوا من منطقة « الفكر والنظر » إلى منطقة « الفعل والممارسة »؛ كي تصبح مسألة القوانين والسُّنن مناخًا أو منهاجًا عامًا يعيشه المجتمع: في يومه وغدِه.. في حركته وسكونه.. في إقدامه وإحجامه.. وفي انتصاره وهزيمته.. بل في كل مظاهر حياته، وليس مجرد إحاطة أو إلمام بالأمر.

إنَّ آيات كثيرة في القرآن الكريم هي قوانين صارمة لا بُدَّ أن تنطبق على الإنسان في جميع أحواله؛ لأنها قوانين متصلة بحياته، بوصفه إنساناً قبل أيِّ اعتبار آخر، وهكذا يكون للنَّصر قانون، وللهمزية قانون، وللنجاح قانون، وللفشل قانون، ومَن يسلك الطريق الصحيح باستعمال هذه القوانين فإنه لا بُدَّ أن يدرك نتائجها وعواقبها، إيجابية كانت أم سلبية؛ لأنه ليس هناك فوضى في الكون، لا مِن ناحية البناء المادي له، ولا من ناحية البناء الإنساني.

ومن الجدير بالذكر - في هذا المقام - : أنَّ القوانين الاجتماعية التي أشار إليها القرآن الكريم ما هي إلا امتداد طبيعي للقوانين الكونية، التي أشار إليها أيضًا القرآن الكريم؛ ذلك أنَّ الكون بنوعيه المادي والإنساني يبقى محكومًا بإرادة إلهية واحدة، تهيمن على الكون من خلال هذه القوانين أو السنن التي تتَّسم في عملها بالثبات والاطراد.

(٥)

ولا بد من الإشارة - في النهاية - إلى أنَّ ما تحدثتُ عنه في هذا الكتاب هو نماذجٌ مرشدة لما ينبغي أن يكون عليه النظر والتدبُّر في آيات القرآن الكريم، بقصد الانتقال بالرؤية القرآنية إلى ساحات ومجالات علمية، ظلت بعيدة - فترة طويلة من الزمن - عن دائرة توجيه القرآن وتأثيره؛ وكان ذلك سببًا من الأسباب التي جعلت المسلمين يفقدون القدرة على تحقيق التأثير الحضاري، فضلًا عن الريادة الحضارية، وفي الوقت نفسه فقَدَت المعرفة الإنسانية مصدرًا من أهم المصادر وأغناها هو « المعرفة القرآنية »، وأثر ذلك بصورة سلبية على خدمة قضايا الإنسان بصفة عامة.

ومن هنا فإنَّ الأمل - اليوم - معقود على ضرورة استعادة الرؤية القرآنية الشاملة؛ لِتُؤَكِّبَ النظرة الشاملة التي بدأت تفرض نفسها على الثقافة الإنسانية.

وهذا الكتاب محاولة على الطريق تستهدف تحقيق الأمرين معًا: استعادة المفاهيم القرآنية الشاملة، ومواكبة النظرة الشاملة للثقافة الإنسانية؛ سعيًا إلى نظرة جديدة تخدم قضايا الإنسان ومشكلاته.

والله ولي التوفيق.

أ.د. مُحَمَّد قَاسِم المَنَسِي

تَمْهِيدٌ

- أولاً: في التعريف بالقوانين.
- ثانياً: في تدبر القرآن الكريم.
- ثالثاً: أهمية معرفة القوانين أو السنن.

أولاً: في التعريف بالقوانين

(١)

جرت العادة على أن يتم تعريف المصطلحات المستخدمة في البحث أو الدراسة؛ وذلك لضبط المفهوم المستخدم من ناحية، وإزالة ما يمكن أن يلتبس به من مفاهيم من ناحية أخرى.

ومن هنا فإن كلمة « قوانين » - التي وردت في عنوان الكتاب - مفردة « قانون » وهو يعني في اللغة: « مقياس كل شيء وطريقه »^(١)، وبذلك تمثل القوانين النظام الدقيق الذي يحكم هذا الكون بما فيه من بشر وكائنات، ومن ثم فهناك قوانين كونية، وهناك قوانين اجتماعية، وكلا النوعين من القوانين مكمل للآخر؛ وذلك لوحدة المصدر ووحدة الهدف، ورغم اختلاف مجال كل منهما عن الآخر فإنهما يشكلان معاً النظام الذي يتم من خلاله تصريف أمور الكون والبشر في هذه الحياة.

ولم يستخدم القرآن لفظ « القانون »، إلا أنه استخدم لفظاً آخر هو لفظ « السُّنة » الذي ورد في عدة آيات من القرآن الكريم، على سبيل الأفراد أو على سبيل الجمع.

ومن ذلك قوله تعالى على سبيل الأفراد: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَنْ يَجْدِلَ سُنَّتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣].

أما على سبيل الجمع، فقد ورد قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وهذا الاستعمال القرآني لكلمة « السنن » يشار به إلى ما بينه الله للإنسانية من طرق الخير أو الشر التي مرّت بها الأمم السابقة، فكان الله تعالى جعلها

(١) المعجم الوسيط، مادة (ق ن ن)، (ص ٧٩١).

قوانين ثابتة في البشر والوجود كله دون أن تتغير أو تتبدل.

(٢)

ولكي نميز بين القوانين وغيرها من القواعد أو الأنظمة المرتبطة بالحياة الإنسانية، مثل: قوانين الإيمان، أو قوانين الأخلاق أو قوانين الحياة والموت؛ فإننا نشير إلى عدد من الضوابط نذكرها فيما يأتي:

أولاً: إن هذه القوانين تتعلق بالإنسان عموماً، بغض النظر عن قضية الإيمان أو الكفر؛ لأن الجانب العقائدي يمثل أحد الجوانب التي تقوم عليها الحياة الإنسانية، وليس كل الجوانب.

ثانياً: إن هذه القوانين قد تنوعت طرق الدلالة عليها ما بين الدلالة الصريحة - كما سبق أن ذكرنا - والدلالة المستنبطة بالاجتهاد، مثل قانون التغيير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقانون الترف في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

ثالثاً: إن هذه القوانين منها ما يكون مرتبطاً بأقوام، وما يكون مرتبطاً بصفات أو بأزمنة معينة: فأما ما ارتبط بأقوام فهي القوانين المتصلة بمصائر قوم عاد وشمود وقوم لوط وقوم مدين، على نحو ما ورد في سورة هود، وأما ما يرتبط بصفات معينة فهو كقوله تعالى في شأن قارون وفرعون وهامان، وأما ما ورد بشأن أزمنة معينة فهو كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

رابعاً: إن هذه القوانين تأتي كاشفة عن فعل من أفعال الله، وقد يكون هذا الفعل مطلقاً أو معللاً، مثل: قوله تعالى في الأفعال المطلقة: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقوله

تعالى: ﴿وَرِيدٌ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]. ومثل: قوله تعالى في الأفعال المعللة: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

خامساً: إن هذه القوانين قد تأتي على صورة الجملة الشرطية، مثل: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقد تشير إلى مشاكلة الفعل الإلهي للفعل الإنساني، كقانون المكر الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقانون الكيد الذي وردت في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقانون التغيير الاجتماعي الذي ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا يَأْفُسُهُمْ﴾ [الرعد: ١١].

(٣)

ومن خلال ما سبق يمكننا أن نستخلص السمات العامة للقوانين القرآنية، وهي كما يأتي:

السمة الأولى: الربانية:

والمقصود بذلك أنها قوانين مرتبطة بالخالق ﷻ، وأنها كلمات الله وأوامره، وإرادته العليا القاهرة فوق كل إرادة أخرى، كما أنها تمثل حكمة الله وتدبيره وتصريفه لأمر هذا الكون.

السمة الثانية: العموم:

والمراد بذلك أنها تتعلق بجميع البشر، وفي كل زمان ومكان؛ لأنها مرتبطة بالإنسان، فأينما وُجد الإنسان على الأرض كانت هذه القوانين حاکمة ومحيطة بكل ما يقع له في هذه الحياة.

السمة الثالثة: الثبات والاطراد:

- والمراد بِسْمَةِ « الثبات »: أن طبيعة هذه القوانين لا تقبل التغيير ولا التبديل؛ وذلك هو ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ لِسَنَتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣].

- أما سمة « الاطراد »: فيقصد بها أنها قوانين لا تتخلف أبدًا، ومن ثم فإن القصص القرآني أحد محاور القرآن الكريم، حيث قصَّ الله تعالى علينا قصص السابقين بقصد الاعتبار والاتعاظ مما وقع لهم، كما في قوله تعالى: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَكَاؤُلَى الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢]، ولولا ثبات هذه القوانين واطرادها لَمَا كان هناك سبب أو مجال للاعتبار أو الاتعاظ.

(٤)

وإذا نظرنا إلى هذه السمات، فإننا نجد أن القرآن الكريم يريد أن يؤكد من خلالها على عدة أمور:

الأول: أن هذه القوانين تتصف بالموضوعية؛ أي: أنها لا تحابي أحدًا؛ فهي تعمل طبقًا لشروطها لا طبقًا لشروط من يستخدمها، فإذا كان قانون الماء هو الغليان عند وصول درجة الحرارة إلى مائة درجة، فإن هذا الغليان يظل مرتبطًا بدرجة الحرارة التي تُعَدُّ بمثابة الشرط لحدوث الغليان، فإذا وصلت درجة الحرارة إلى مائة درجة حدث الغليان، وإذا لم تصل فلا يحدث؛ لأنَّ الغليان - وهو (النتيجة) - ارتبط ارتباطًا موضوعيًا بـ (الشرط) وهو درجة الحرارة.

الثاني: أنها تخلق لدى المسلم وعيًا بأن الأحداث التي تجري في هذا الكون تمضي وفق إرادة حكيمة، وتقدير صارم لا يند عنه شيء، فلا مبدل لكلمات الله، ولا رادَّ لحُكمه وقضائه.

الثالث: أن هذه القوانين تجري بقدر الله وإرادته الحاكمة لهذا الوجود كله؛ ومن ثمَّ فلا مجال لأية استثناءات عند تطبيق القانون، وهذا ما غاب عن كثير

من المسلمين في عصرنا، الذين حسبوا أنهم - لكونهم مسلمين - يحقُّ لهم أن يتصرفوا على عدوهم بغير توضيحات، أو يتغلبوا على ظروفهم ومشكلاتهم من دون سعي أو بذل مجهود، وهو ما يُشكِّل عقبةً حقيقية في استعادة المسلمين لموقعهم الحضاري في عالم اليوم.



ثانيًا: في تدبر القرآن الكريم

(١)

لا يحتاج القارئ المتدبر إلى بذل مجهود كبير للنظر في آيات القرآن الكريم، التي تدعو إلى التدبر والتأمل، وحسبه أن يقرأ الآيات التي تدعو صراحة إلى تدبر القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَذَكِّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَاءٌ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

ولم يكتفِ القرآن بالدعوة الصريحة إلى التدبر، وإنما جعله غرضًا أساسيًا لنزول القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذَّبَ عَنْ يَدَيْهِ وَيَذْكُرُوا أُولَ الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

وما ذلك إلا لأن القرآن الكريم لا يكشف عن عطائه وكنوزه وأسراره إلا للقارئ المتدبر، الذي ينطلق في قراءته للقرآن الكريم من الوسائل التي يُستعان بها في فهم القرآن، كاللغة والأثر والقدرات العقلية المختلفة من الفهم والتذكر والتأمل، ثم ينتقل بعد ذلك إلى قراءة الكون المفتوح الذي يشكل وسيلة أخرى من وسائل فهم القرآن؛ إذ إن قراءة القرآن المسطور لا تستغني عن قراءة الكون المنظور، فالقراءتان متلازمتان، وإن أعمال القراءتين - كما ذهب إلى ذلك بعض المعاصرين - والجمع بينهما بمنهجية كونية، والانطلاق منهما مع الاستفادة بسائر الوسائل، تجعل من هذه القراءة الكاملة الوسيلة الدائمة المتجددة لتحقيق الغاية من الخلق، وبناء الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، كما أن تعطيل أي من القراءتين أو تجاوزهما أو الإخلال بالتوازن بينهما هو إعراض عن ذكر الله تعالى يترتب عليه من الحرج ما يجعل المعيشة ضنكًا، والمآب سيئًا؛ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

(٢)

ولا شك أنَّ المسلمين عندما تدبروا القرآن الكريم أنتجوا علومًا كثيرة قامت لخدمة القرآن الكريم وتيسير قراءته وفهمه، مثل: علوم الفقه والتفسير واللغة والأصول، وغيرها من العلوم التي انبثقت من القرآن الكريم، وحقق المسلمون الريادة الحضارية والعطاء الحضاري الذي لا يمكن إنكاره أو تجاهله.

ومع كلِّ ما سبق، فإنه لا يمكن القول بأن هذه العلوم قد أحاطت بما تضمنه القرآن الكريم من حقائق؛ فما يزال هناك مجال واسع للتأمل واستخراج كنوز القرآن الكريم وأسراره؛ لأنه دائمًا معطاء ومتجدد، ولا تنتهي عجائبه، ولا تنفذ أسرارته.

(٣)

ولا شك أنَّ من يبيِّن ما يحتاج إلى التدبر والتأمل: ما يتصل بمسألة القوانين أو السُّنن التي تتعلق بالكَوْن والإنسان والحياة؛ لأن معرفة هذه القوانين جزء من الدين، وهو جزء في غاية الأهمية؛ لأنه يُبَصِّرنا بالسلوك الصحيح الذي يَصُوبُ - في النهاية - لصالح الدين والدنيا، ولأهمية ذلك ذهب بعض كبار المصلحين في زماننا إلى القول بأهمية معرفة هذه القوانين، وجعلها علمًا من العلوم.

- يقول الإمام محمد عبده: ولَمَّا اختلفت حالة العصر اختلافًا، احتاجت معه الأمة إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد وغيرهما، كانت محتاجة أيضًا إلى تدوين هذا العلم، ويمكن أن نسميه: « علم السُّنن الإلهية » أو « علم السياسة الدينية »، والسُّنة - كما هو معلوم - هي الطريقة المعتمدة أو السيرة الحميدة المتبعة والقانون المطرد الذي لا يتبدل ولا يتحول؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فالحياة لم تُخلَق عبثاً، وإنما خضعت لسنن وقوانين، وأمرُ البشر في اجتماعهم، وما يعرض فيه من الصراع والتدافع الحضاري بين الحق والباطل، وما يتبع ذلك من الحرب والنزال، والملك والسيادة، والتداول الحضاري؛ يجري على طريقة قديمة وقواعد ثابتة اقتضاها النظام العام؛ فمن سار على سننه في الحرب مثلاً ظفر بمشيئة الله، وإن كان ملحدًا أو وثنيًا، ومن تركها - أي: السنن والقوانين - خسر، وإن كان صديقًا نبياً^(١).

- ويقول الشيخ محمد رشيد رضا: إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سنناً يوجب علينا أن نجعل السنن علماً من العلوم؛ لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه؛ فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوّم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، ويبيّن العلماء بالتفصيل؛ عملاً بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه.

ثم يقول: والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، دلّنا على مأخذه على أحوال الأمم؛ إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها^(٢).

- أما الشيخ الغزالي فيقول: إنّ الحال التي نحن عليها أصبح يتردد فيها ضرورة الانتباه إلى «سنن الله في الأنفس والآفاق» التي تحكم شروط «النهوض والسقوط الحضاري». أصبحنا نسمع بضرورة الإفادة من هذه السنن، بل لعل ذلك أصبح قناعة عند الناس بشكل عام، لكن هذه القناعة لم تجد طريقها إلى الممارسة، ولم تنتقل بمواقفنا إلى مراحل تغييرية؛ فما يزال هناك قيود التقليد الاجتهادي من ترسيبات الماضي...

ثم يقول: وأرى أن المشكلة تتركز اليوم في إدراك هذه السنن، وحسن تسخيرها والتعامل معها... كيف يمكن للأمة بواقعها الحالي أن تنتقل من موقع

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (١٤٠/٤ - ١٤١).

(٢) المرجع السابق (١٣٩/٤).

المعرفة والفكر، إلى موقع الفعل؟ فالتحوُّل وإعمال هذه السنن هو المختبر الحقيقي لإدراكها والقناعة بها^(١).

(٤)

والذي يبدو لي: أنه على الرغم من صدور هذه التوجيهات من كبار المصلحين منذ فترة طويلة من الزمن؛ فإنه من الملاحظ أن فقه القوانين والسنن الإلهية لم ينل - في العصر الحديث - تلك العناية التي نالتها علوم إسلامية أخرى، رغم أهمية السنن أو القوانين وضرورتها في حياة الفرد والمجتمع؛ الأمر الذي كشف عن وجود خلل كبير في أسلوب فهم القرآن الكريم، وفي طريقة التعامل معه، بل وفي المؤسسات التعليمية، وما فيها من مناهج ووسائل تعليم؛ حيث لم تنجح في أن تكون أداة توصيل صحيحة بين الأجيال الحديثة وبين القرآن الكريم ومعطياته الثقافية.

إنه في ظلّ اكتشاف كثير من قوانين الطبيعة، في ميدان العلوم التطبيقية كالكيمياء والفيزياء وغيرها، فقد بات من الضروري السعي إلى اكتشاف قوانين الحركة الاجتماعية من القرآن الكريم؛ لأنها تعتبر اليوم أحد المداخل الأساسية لبناء مجتمع وتشييد حضارة تُحقّق للإنسان ما يصبو إليه من تقدّم ورقيّ.



(١) كيف نتعامل مع القرآن؟ للشيخ محمد الغزالي (ص ٨٣).

ثالثاً: أهمية معرفة القوانين أو السنن

(١)

النظرة المدققة لنظام الكون تكشف عن خضوعه لنظام مُحكم دقيق، سواء في النواحي الكونية أم في النواحي الاجتماعية؛ فليس هناك مجال للفوضى أو العبث من ناحية البناء المادي أو من ناحية النهوض الحضاري أو سقوط الحضارات، وليس هناك مجال للاستثناء في تطبيق هذه القوانين في واقع الحياة، وهذا ما دَلَّ عليه الواقع التاريخي؛ حيث هُزِمَ المسلمون في «أُحُد»؛ لأنهم قَصَّروا في اتخاذ الوسائل والأسباب لاستكمال النجاح الذي تحقق في معركة «أُحُد» في أول الأمر، ولمَّا استكملوا أسباب النصر انتصروا.

ومن ذلك نستخلص أن النصر له قانون، يتحقق لمن أخذ به وسلكه، وأن الهزيمة - أيضاً - لها قانون، وتتحقق عند عدم الأخذ بأسباب الانتصار.

(٢)

أما وجه الحاجة إلى معرفة هذه السنن أو القوانين في شؤون الحياة والمجتمع فترجع إلى الأمور الآتية:

أولاً: أنَّ هذه القوانين تحكم مسيرة الإنسان على الأرض؛ فلم يترك أي شيء للمصادفة أو للعبث، فالنظام المحكم الدقيق هو عنوان الكون كله فيما صُغِرَ منه أو كَبُرَ. ولا يمكن القول بأن الكون يحكم نفسه بنفسه؛ لأنَّ هذا يعني أن كل شيء ينطوي على عقل يقوده ويسيطر عليه، وهو ما يخالف الواقع؛ ومن ثم فإن نهوض الأمم أو سقوطها، بقاءها أو فناءها - محكومٌ بقوانين وأسباب مباشرة.

ثانياً: أنَّ هذه القوانين تمثل الحقيقة المطلقة التي لا تقبل التغيير ولا التبديل، وهي متاحة ومباحة للجميع؛ لأنها تتصل بالإنسان؛ ومن ثمَّ فإنَّ مَنْ يسعى إليها باحثاً ومُنقِباً ومستثمراً ينتفع بها في مجالات حياته كافة؛ لأنها ستهديه إلى

السلوك القويم الذي يحقق به التقدم والازدهار.

ثالثاً: إنَّه لا يمكن فهم الظواهر المتعلقة بالإنسان فرداً أو مجتمعاً إلا من خلال فهم هذه القوانين، وأعني أن ظاهرة كظاهرة الطغاة أو الطغيان - مثلاً - لا يمكن أن يُفهم تأثيرها إلا من خلال معرفة قانون الطغيان، وأحوال الطغاة، وكيفية مواجهة هذه الظاهرة؛ كي يتجنب البشر الوقوع فيما وقع فيه غيرهم من الاستسلام والخضوع للطغاة.

رابعاً: أنَّ من بين أغراض القرآن الكريم في ذكر هذه القوانين أن يستفيد منها المسلم في حياته، فينتقل من مجرد الإدراك والإحاطة إلى العمل والممارسة؛ لأنَّ الإدراك بغير عمل وممارسة لا قيمة له؛ إذ ما قيمة أن ندرك ضرورة التغيير ثم لا نمارس شيئاً منه سواء على المستوى الفردي أم الجماعي؟!

خامساً: أنَّ الأخذ بهذه القوانين يعني انتقال الإنسان من حالة العفوية والعشوائية والارتجال، إلى حالة الضبط والتنظيم والتخطيط لكل مظاهر الحياة، ومن شأن هذا أن يشيع مناخاً إيجابياً يسهم في تحقيق التقدم الذي ننشده لأنفسنا ومجتمعاتنا؛ ذلك أن كثيراً من مظاهر التخلف العلمي والثقافي والاقتصادي في بلادنا يرجع إلى الطريقة التي ندير بها حياتنا الفردية أو الاجتماعية، وهو ما يعني أننا حتى لو عرفنا القوانين فنحن لم نستفد منها في تغيير أو تطوير حياتنا بما يعود علينا وعلى الإنسانية من حولنا بالنفع والخير الكثير.

سادساً: أنَّ تجارب النهوض والنجاح في بناء الذات الفردية والجماعية تشير إلى أن الاستفادة من هذه القوانين كان حجر الزاوية في عملية البناء والإصلاح على المستويين الإنساني والحضاري، وأن اكتشاف هذه القوانين كان مقدمة ضرورية من خلال الكشف العلمية والبحث العلمي، مهّد الطريق للتغيير الشامل الذي غير وجه الحياة في ميادين النشاط الإنساني كافة.



الفصل الأول

قوانين تتعلق بالكون

وتشمل القوانين الآتية:

- النُّسبِيَّة.
- السَّبَبِيَّة.
- التَّسْخِير.
- التَّعَاقُب.
- الاختلاف والتنوع.
- التساوي والتباين.
- الاستخلاف.
- المداولة والاستبدال.

قانون النسبية

(١)

النسبية مصدر مشتق من « النسبة » وهي الصلة والقرابة، والمقدار المنسوب^(١)، و« النسبي » هو المقيّد بغيره المرتبط به، وعكسه « المطلق »^(٢). والمقصود بقانون النسبية: أن كل شيء في هذا الكون يتسم بالنسبية وعدم الإطلاق، وخصوصاً الزمن الذي خلقه الله؛ ولذا فإن الزمان المطلق أو الحقيقي يكون عند الله وحده.

ولقد ذكر القرآن الزمن في تقديرات مختلفة تشير إلى نسبية الزمن:

أ - ومن ذلك مقدار كلمة « يوم » في القرآن الكريم؛ حيث ورد أن هناك يوماً طوله ألف سنة، وفي موضع آخر خمسون ألف سنة مما يحسب البشر في عداد الزمن، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥]. وكذلك في قوله تعالى: ﴿ تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَكَأَنَّ الْوَيْحَ إِلَى اللَّهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤]. فالיום الواحد - عند الله - يتراوح طوله بين ألف سنة، وخمسين ألف سنة، وهذا يقتضي نسبية الزمن؛ إذ لو كان الزمن مطلقاً لما تغير مقدار من تقدير لآخر.

ب - وفي إطار الزمن - أيضاً - نجد - مثلاً - أن القرآن الكريم في أثناء حديث القرآن الكريم عن أهل الكهف، والمدة التي قضوها في الكهف، ذكر أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۖ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ ۖ ﴾

(١) المعجم الوسيط، مادة (ن س ب)، (ص ٩٥٥).

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، للدكتور أحمد مختار عمر، مادة (ن س ب)، (٥١٠٥)،

(٣/ ٢٢٠٠).

غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ... ﴿ [الكهف: ٢٥، ٢٦].

قال القرطبي في تفسيره: هذا خبرٌ من الله تعالى عن مدة لبثهم.

وفي قراءة ابن مسعود: (وقالوا لَيْثُوا). أي: أن ذلك قول لبني إسرائيل.

قال الطبري: إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإغثار [العثور] عليهم إلى مدة النبي ﷺ؛ فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين، فأخبر الله تعالى نبيه أن هذه المدة في كونهم نيامًا، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر. فأمر الله تعالى أن يُردَّ علم ذلك إليه.

قال ابن عطية: فقوله على هذا ﴿ لَيْثُوا ﴾ الأول يريد في نوم الكهف، و﴿ لَيْثُوا ﴾ الثاني يريد بعد الإغثار [العثور] إلى مدة محمد ﷺ، أو إلى وقت عدمهم بالبلاء.

وحكى النقاش ما معناه: أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية بحساب الأيام، فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي دُكرت التسع؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية، وهذه الزيادة هي ما بين الحسابين. ونحوه ذكر الغزنوي. أي: باختلاف سِنِي الشمس والقمر؛ لأنه يتفاوت في كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة سنة، فيكون في ثلاثمائة تسع سنين.

وقرأ الجمهور: ﴿ ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ ﴾ بتنوين ﴿ مِائَةٍ ﴾ ونصب ﴿ سِنِينَ ﴾، على التقديم والتأخير، أي: سنين ثلاثمائة، فقدَّم الصفة على الموصوف، فتكون ﴿ سِنِينَ ﴾ على هذا بدلًا أو عطف بيان^(١).

وقد عقب القرآن الكريم على ذكر المدة التي قضاها أهل الكهف في كهفهم بقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْثُوا ... ﴾ بعد أن أخبر ﷺ بالمدة السابقة، أراد أن يخبرنا بنسبية الزمن، وأنه تعالى هو الذي يعلم الزمن المطلق، فلكل مكان زمانه...

بالإضافة لما سبق، فإن للزمن دلالات مختلفة؛ يقول الدكتور مصطفى

(١) تفسير القرطبي (١٠/٣٨٦ - ٣٨٧).

محمود: « فالإنسان الذي يسكن عطار - مثلاً - سوف يجد للزمن دلالات مختلفة؛ إذ إن عطار يدور حول نفسه في (٨٨) يوماً، وهو في هذه المدة نفسها يكون قد دار - أيضاً - حول الشمس، ومعنى هذا أن طول اليوم العطاردي يساوي طول السنة العطاردية، وهو تقويم يختلف تماماً عن تقويمنا؛ وبذلك يكون الزمن مقداراً لا معنى له إذا لم يُنسب إلى النظام الذي اشتق منه، ولا يمكن أن نفرض كلمة مثل « الآن » على الكون كله؛ فهي - أولاً - كلمة ذاتية نفسية.. وحتى إذا اقتصرنا على معناها الموضوعي وهو: تواتر حدثين، وحدوثهما معاً في ذات اللحظة.. فإن هذا التواتر لا يمكن أن يحدث بين أنظمة مختلفة لا اتصال بينها »^(١).

(٢)

وفي هذا السياق - أيضاً - نستطيع أن نتبين الفارق الزمني في تقدير مدة الحياة الدنيا؛ حيث جاءت هذه التقديرات - كما أشار القرآن - مختلفة:

فمن الناس من قال: إن بقاءنا في الدنيا إنما كان في حدود عشرة أيام، ومنهم من قال: إنه كان يوماً واحداً؛ يقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمِذٍ زُرْقًا ۚ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۖ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۚ ﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤].

ومنهم من يراه يوماً أو بعض يوم: ﴿ قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۚ ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣].

ومنهم من يراه أنه لم يتجاوز الساعة: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۖ ﴾ [الروم: ٥٥].

وقال تعالى واصفاً شعورهم بالنسبة للمدة التي قضوها في الدنيا، حين يرون عذاب الآخرة: ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُؤْتَوْنَ لِأَعْيُنِهِمْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ۚ ﴾ [النازعات: ٤٦]. وقال:

(١) أينشتاين والنسبية، للدكتور مصطفى محمود (ص ٤٤).

﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].
 كذلك يذكر القرآن عن الكفار فيقول: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧].
 فالمراد بالسنين - هنا - سنين الدنيا المحدودة، فإنها لا تساوي شيئاً بالنسبة
 للآخرة.

(٣)

ومما سبق نستخلص ما يأتي:

- ١ - أن الزمن - كما يقول العلماء - هو البعد الحركي للأشياء، ويطلق عليه
 البعد الرابع بعد الطول، والعرض، والعمق أو الارتفاع، وهكذا كل متحرك له
 زمنه الخاص به سواء أكان كوكباً أم قمراً أم نجماً أم مجرة^(١).
- ٢ - ولقد تضمن القرآن إشارات إلى الوقت في قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ
 مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ... ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقوله تعالى: ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن
 رَبِّكُمْ ... ﴾ [الحديد: ٢١] فإن السرعة من لوازم الزمن، وكذلك المسابقة.
- ٣ - أن القرآن الكريم في إطار تقديره لعنصر الزمن تضمن الإشارة إلى
 مفردات الزمن، كالساعة، واليوم، واللييلة، والفجر، والضحى، والعصر، بما
 يؤكد عناية القرآن بالزمن من ناحية، وأهمية عنصر الزمن في تحقيق العطاء
 المعرفي للقرآن الذي يدل على خلوده وبقائه من ناحية أخرى.



(١) أينشتاين والنسبية، للدكتور مصطفى محمود (ص ٧١).

قانون السببية

(١)

السبب - في اللغة - : هو كل شيء يُتوصَّل به إلى غيره^(١).
والمراد بالسببية - هنا - : هو ربط الأشياء والأحداث بأسبابها، والنتائج المترتبة على مقدماتها، وهذا قانون عام شامل لكل ما في الكون، ومن ثم فلا مجال للقول بالمصادفة أو العشوائية.

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي رتبت الأحكام الكونية والشرعية على الأسباب المنشئة لها بطرق متنوعة، فمنها قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].
ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ...﴾ [الطلاق: ٣، ٢].

(٢)

شروط الأسباب:

حتى يعمل السبب فينتج عنه مسببه، لا بد له من شروط، إذا تحققت وُجد المسبب، وإذا لم تتحقق لم يوجد، وكذلك لا بد من انتفاء [انعدام] الموانع التي تمنع هذا السبب من القيام بدوره في تحقيق النتيجة المترتبة عليه، وهذا ما يلاحظ في الأمور الكونية والتشريعية:

- أما في الأمور الكونية فإن الزرع لا يثمر حتى يتحقق سبب الإثمار، وهو حرارة الأرض وإلقاء البذر وتوفير الماء، ولا يكفي ذلك بل لا بد من انتفاء الموانع أو الآفات التي تهلك الزرع عادة.

(١) المعجم الوسيط، مادة (س ب ب)، (ص ٤٢٨).

- وأما في الأمور التشريعية، فإن الحكم الشرعي لا يُطبَّق إلا إذا وُجد سببه، وتحقَّق شرطه، وانتفى مانعه.

فالصلاة لا تكون واجبة إلا بدخول الوقت.

وتحقَّق شرط الطهارة بالغسل والوضوء، وانعدام المانع من الجنابة وغير ذلك.

والزكاة لا تكون واجبة إلا ببلوغ المال حدَّ النصاب، وتحقَّق شرط مُضيِّ الحول وامتلاك المال ونمائه، وانعدام المانع من وجوبها وهو الدَّيْن؛ فإنَّ وجود الدَّيْن يمنع من وجوب الزكاة.

وهكذا في كل الأحكام الشرعية بدرجاتها المختلفة؛ إعمالاً لقانون السببية، لا يُطبَّق فيها الحكم إلا إذا وُجد سببه، وتحقَّق شرطه، وانتفى مانعه.

(٣)

الأسباب والقضاء والقدر:

قد يعرض لبعض الناس التساؤل الآتي: إذا كانت الأسباب والنتائج من فعل الله وحُكمه؛ لأنه تعالى خالق الأسباب والمسببات؛ فمعنى ذلك أنه إذا كان الله قد قَدَّرَ أمراً، فلا بد أن يحصل كما قَدَّرَ الله، سواء أخذ الإنسان بالسبب أم لم يأخذ؟

والجواب عن ذلك بأن الله تعالى خلق الأسباب، وخلق النتائج المترتبة عليها، لكنه كلَّف الإنسان بأن يأخذ بالأسباب حتى تتحقق النتائج المترتبة عليها، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِ وَجَنَّتْ وَيجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَرًا ﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

يقول ابن كثير: « إذا تُبِّمَ إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع،

وأدّر لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخلّلها بالأنهار الجارية بينها»^(١).

فالعلاقة بين الاستغفار وما يترتب عليه هي علاقة بين السبب والنتيجة أو النتائج المترتبة عليه، ويبقى على الإنسان أن يأخذ بالسبب؛ أي: يستغفر مع الأخذ بالأسباب الدنيوية من السعي والسفر إلى الرزق وحرارة الأرض وغير ذلك، فإذا استجاب حدث له النتائج، أما إذا لم يستجب ويأخذ بالأسباب؛ فإنه لا ينال شيئاً.

(٤)

الأسباب والتوكل:

هل الأخذ بالأسباب يتعارض مع التوكل؟

إذا نظرنا إلى حقيقة التوكل وهو عملٌ بالقلب وتصديق بالجوارح، لو جدنا أن التوكل نفسه من أعظم الأسباب التي تُحقّق غرض الإنسان في جلب الخير له، ورفع الضر عنه؛ ومن ثم فمن أنكر الأسباب بحجة التوكل، فإنه يكون قد أساء فهم معنى التوكل.

إن التوكل الصحيح هو الاعتماد الكامل على الله، والثقة بكفايته لعبده، مع الأخذ بالأسباب الشرعية أو العادية التي أقامها الله تعالى؛ لكي تفضي إلى نتائجها.

وهذا ما يستفاد بوضوح من الحديث الشريف: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقْنَاكُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»^(٢). وفي هذا الحديث دلالة على مشروعية العمل والسعي والأخذ بالأسباب؛

(١) تفسير ابن كثير (ص ١٣٦٩).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب في التوكل على الله، رقم (٢٣٤٤)، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح، لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

فالطير لا يأتيها رزقها وهي في أعشاشها، بل بسعيها؛ حيث ألهمها الله تعالى السعي لتحصيل رزقها، فتخرج جياحاً وترجع بطاناً، أي: ممتلئة البطون شبعاً. وهذا هو ما ينبغي أن يفعله من يعتمدون على التوكل، فالتوكل الحقيقي لا يتم إلا بالأخذ بالأسباب.

وهذا - أيضاً - ما ورد في الحديث أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْقِلْهَا [أي: ناقته أو بعيره] وَأَتَوَكَّلْ، أَوْ أُطْلِقْهَا وَأَتَوَكَّلْ؟ قَالَ: «أَعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»^(١).

وهكذا لا يكون التوكل متعارضاً مع الأخذ بالأسباب؛ لأن التوكل الصحيح يكون جزءاً من أسباب المؤمن في تصريف أموره وشؤونه في ميادين الحياة كافة.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما جاء بشأن ذي القرنين في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٢﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨١﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٣﴾﴾ [الكهف: ٨٣ - ٨٥]، أي: آتيناه من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبباً، فأتبع سبباً^(٢).

ومعنى ذلك أن الله هيا له أسباب التمكين من العلم والقدرة والإمكانات، وأنه أحسن الأخذ بهذه الأسباب، فحقق بها إنجازات عظيمة، وقدم نموذجاً حضارياً استطاع من خلاله أن ينشر العدل في الأرض، وأن يحدث نقلة حضارية لأمة كانت تعيش في حالة عجز وتخلف، فأقام لها السد الذي كفل لها الحماية من هجمات الأعداء، وأعاد لها الأمان المفقود.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرفائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب منه، رقم (٢٥١٧)، عن أنس بن مالك ﷺ. وقال الترمذي: «هذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد روي عن عمرو بن أمية الضمري، عن النبي ﷺ نحو هذا». اهـ. ورواية عمرو بن أمية ﷺ عند الحاكم في المستدرک، كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر عمرو بن أمية الضمري الكناني. وقد ذكر ابن الملقن في مختصر استدراك الذهبي على مستدرک الحاكم (٢٣٤٦/٥)، (رقم: ٨٠٦) أن الذهبي قال: «سنده جيد».

(٢) تفسير ابن كثير (ص ٨١٦).

(٥)

ونستخلص مما سبق:

١ - أن تعطيل قانون السببية في حياة المسلمين المعاصرة أدى إلى قصور في التقدم في عمارة الأرض، وفي صناعة النفوس الصالحة لحمل الأمانة الكبرى، فانطفأت الفاعلية، وساد التواكل، ولا بد من إعادة التفكير في قانون السببية ودراسة أهميته في واقع الحياة؛ حتى نعيد بناء الحضارة، ونستعيد الروح التي غاب وغيها بهذا القانون، فحلّت بها النكبات والهزائم.

٢ - أن المنهج الإسلامي في التعامل مع قانون الأسباب هو الجمع بين الأخذ بالأسباب والاعتماد والتوكل على المسبّب (الله تعالى)؛ لأن الأخذ بالأسباب وحده يؤدي إلى فتنة الإنسان وغروره وهلاكه في نهاية الأمر، والاعتماد على المسبب وحده دون الأخذ بالأسباب يعد معصية لأوامر الخالق، ومخالفة لمنهج الشريعة الإسلامية، ومعارضة للنظام الذي يحكم الكون كله، والذي قام على أن لكل شيء سبباً، وأن التكليف بالأخذ بالأسباب هو نوع من التناغم والتوافق مع نظام الكون.



قانون التسخير

(١)

التسخير - في اللغة - : من الفعل « سَخَّرَ »، سَخَّرَ الشيءَ: أي: ذَلَّلَهُ وأخضعه، وسَخَّرَ اللَّهُ الْإِبِلَ: ذَلَّلَهَا وسَهَّلَهَا، وسَخَّرَ اللَّهُ الْكَوْنَ: أي: ذَلَّلَهُ وأخضعه للإنسان^(١).

ويُعَدُّ التسخير في القرآن من القوانين الكونية، والقوانين الاجتماعية.

- أما ما يتصل بالقوانين الكونية، فقد ورد قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝ ٣٢ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝ ٣٣ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝ ٣٤ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤]، وورد قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣].

وهكذا يلفت القرآن النظر إلى قانون التسخير في المجال الكوني، فكل مظاهر وعناصر الكون خُلِقَتْ من أجل الإنسان، وعندما ينبهنا القرآن إلى ذلك فإنه لا يقصد - فقط - إخبارنا بطبيعة علاقة التسخير بيننا وبين الكون، ولكنه لفت أنظارنا إلى أمر آخر أعمق من ذلك، هو أهمية اكتشاف قوانين التسخير الكونية... فمعرفة هذه القوانين هي التي تمكننا من القدرة على تسخيرها، وذلك يقتضي السعي إلى تحصيل التقدم العلمي والتكنولوجي؛ لنتمكن من تسخير هذه القوى الكونية كالأرض والبحر والجو وغير ذلك؛ لتحقيق عمارة الأرض واستخلاف الإنسان.

(١) المعجم الوسيط، مادة (س خ ر)، (ص ٤٣٩).

- وأما ما يتصل بالجانب الاجتماعي في هذا القانون، فقد ورد في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢]،

وهكذا تحدّث القرآن عن جانب آخر من قانون التسخير، هو الجانب الاجتماعي؛ حيث يكون تقسيم الناس إلى طبقات من السّنة التسخيرية؛ فهناك المهندس، وهناك الطبيب، والقاضي، والعامل، ولا بد أن يكون كل واحد مُسَخَّرًا للآخر؛ فبعضهم يمثل العقل، وبعضهم يمثل الآلة أو أداة التنفيذ، وهذا التقسيم ليس قائمًا على أساس الرضا والسخط من الله، ولكنه قائم على تفاوت المواهب والحظوظ والفروق الفردية بين الأفراد، بحيث لو لم تكن هناك هذه الفروق الفردية كما كان هناك مبرر للتسخير في المجال الاجتماعي، ولو تعطل الجانب الاجتماعي في مجال التسخير كما تحقق الإعجاز في الأرض، ولما استطاع الإنسان أن يحقق الغاية من وجوده، وهي أن الله تعالى استخلفه في الأرض.

إن الجانب الاجتماعي في قانون التسخير يشير إلى ضرورة اكتشاف القوانين الحاكمة للحركة الاجتماعية صعودًا وهبوطًا، قوة وضعفًا؛ لأن العلاقة بين أفراد المجتمع كالعلاقة بين أجزاء الجسم في الترابط والتماسك.

ولا شك أن قانون التسخير في المجال الاجتماعي ينطوي على عدة قوانين تتصل بالعلاقات القائمة بين أفرادها، مثل: قانون القسمة، وقانون الرفع، وقانون التفاوت.

ومن ثمّ لا تقوم شبكة العلاقات الاجتماعية من دون هذا التفاوت القائم على الفروق الفردية، وقسمة المعيشة بين الناس، كما قسّم بينهم - كما قال الطبري في تفسيره - صُورهم وأخلاقهم^(١).

والقسمة التي تشير إليها الآية الكريمة هي قسمة أعمال، وليست قسمة أشخاص، ورفع الدرجات يَسِيرُ - كذلك - إلى رفع قيمة الأعمال لا قيمة

(١) تفسير الطبري (٥٨٥/٢٠).

الأشخاص؛ ومن ثمَّ يتحرك المجتمع داخل دوائر متبادلة؛ حيث يكون كل واحد مُسخَّرًا لغيره، فتكتسب الحركة الاجتماعية عناصر القوة والتماسك والاستقرار.

(٢)

ونستخلص مما سبق:

أن الثقافة المرتبطة بقانون التسخير، تجعل العلاقات الاجتماعية قائمة على مراعاة الفروق الفردية من ناحية، ومراعاة المصالح الاجتماعية من ناحية أخرى، ومن ثم لا يطفئ الفرد على المجتمع، ولا يطفئ المجتمع على الأفراد، وإنما يتحرك المجتمع في إطار تبادل المنافع والمصالح وليس في إطار الصراع والإقصاء.



قانون التعاقب

(١)

تدل كلمة « التعاقب » على مجيء شيء مكان آخر، أو خلفه؛ فيقال: تعاقب الشيطان: أي: خلف أحدهما الآخر، وتعاقب القوم في الشيء أو الأمر: أي: تناوبوه^(١).

ويُعد التعاقب من قوانين القرآن الكريم؛ فقد ورد هذا القانون في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢]، والمعنى: يخلف كل واحد منهما صاحبه، يتعاقبان لا يتوقفان، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذاك، كما قال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآبِّينَ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، وقال: ﴿ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ [يس: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿ لِمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أي: جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له ﷻ؛ فمن فاتته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاتته عمل في النهار استدركه في الليل^(٢).

إن قانون التعاقب سنة من سنن الكون، حيث يتعاقب الليل والنهار باستمرار، بلا فتور أو كلل؛ الأمر الذي يكشف عن نظام كوني مُحَكَّم ودقيق، لا يقتصر الأمر فيه على مجرد الحركة، وإنما بالإضافة إلى ذلك فإن الحركة المحكَّمة الدقيقة التي عبَّر عنها هذا القانون لا يمكن أن تتغير أو تتبدل.

(١) المعجم الوسيط، مادة (ع ق ب)، (ص ٦٣٥).

(٢) تفسير ابن كثير (ص ٩٧٥).

وفي موضع آخر من القرآن يفصل هذا التعاقب، فيقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلًا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَوْ لَيْلًا تَبْصُرُونَ﴾ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿ [القصص: ٧١ - ٧٣].

ومعنى ما سبق أن من قوانين الكون التعاقب، أي: يخلف بعضهم بعضاً؛ فالليل يعقب النهار، والنهار يعقب الليل، والنتيجة اللازمة من تعاقب الليل والنهار دائماً على سطوح الأرضين ألا يبقى مكان عليها دائم الليل أو النهار^(١). ولتأكيد المعنى السابق جاء قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ [الرعد: ٣]. فالله تعالى جعل الليل والنهار يتعاقبان على الأرض عقب خلقها، وأن هذا التعاقب استمر بعد ذلك في أثناء تسخير الأرض وإعدادها للحياة؛ بمد الأرض، وجعل الرواسي والأنهار، وإخراج أزواج النبات منها^(٢).

(٢)

ويكشف هذا القانون الكوني عن وجه آخر من وجوه التعاقب في الحياة ينسجم مع التعاقب الكوني، هو تعاقب الأحوال، فإذا كان الليل والنهار يتعاقبان، فيخلف كل منهما الآخر، فإن الأحوال الإنسانية لا تدوم على حال واحدة، وإنما ينتقل منها الإنسان بين الشيء ونقيضه، بين الصحة والمرض، والفقر والغنى، والقوة والضعف، والفرح والحزن، وهكذا ينسجم ما هو كوني مع ما هو اجتماعي، ويستطيع الإنسان أن يتنبأ - بناءً على هذا القانون - ما سوف يؤول إليه الحال في المستقبل.

(١) التفسير العلمي، لحنفي أحمد (ص ٢٨١).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٨٥).

(٣)

ونستخلص مما سبق:

أن التعاقب والتغير في الأحوال الإنسانية ينسجم مع التعاقب والتغير في الأحوال الكونية، وهو ما يشير إلى وحدة القانون من ناحية، وضرورة الاستفادة من هذا القانون في تفسير الظواهر الفردية والاجتماعية، وقراءة المستقبل من ناحية أخرى.



قانون الاختلاف والتنوع

(١)

الاختلاف: مصدر الفعل « اختلفَ »، ويقال: اختلف الشيطان: لم يتفق، ولم يتساويا^(١).

ومنه: التنوع، وهو مصدر الفعل « تنوع »؛ يقال: تنوعت الأشياء: تصنفت وصارت أنواعاً^(٢).

ويتعلق قانون الاختلاف والتنوع بنوعين من القوانين الإلهية: القوانين الكونية، والقوانين الاجتماعية.

- فمن القوانين الكونية قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا ﴾ [فاطر: ٢٧].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ، كَذَلِكَ ﴾ [فاطر: ٢٨].

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ﴾ [النحل: ١٣].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهَا ﴾ [فاطر: ٢٧].

﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ، ثُمَّ يَهْبِطُ فَرْثَهُ مُصْفَرًّا ﴾ [الزمر: ٢١].

(١) المعجم الوسيط، مادة (خ ل ف)، (ص ٢٦٠).

(٢) المرجع السابق، مادة (ن و ع)، (ص ١٠٠٣).

- ومن القوانين الاجتماعية قوله تعالى:

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].
﴿وَمَنْ أَيْنِسْتِهِ خَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ النَّسِيبَ كُمْ وَالْوَيْكَرُ﴾ [الروم: ٢٢].

(٢)

ومن ذلك يتضح أن الاختلاف قانون كوني واجتماعي في الوقت نفسه، وأنه جزء أصيل في بناء الكون وبناء الحياة، وأن عدم إدراك ذلك يفضي إلى مشكلات كثيرة تعطل التواصل والتفاعل الإنساني.

وإذا كان الاختلاف في المساحة الكونية واضحاً لا لبس فيه، فإنه في المساحة الاجتماعية يحتاج إلى ضبط وتنظيم؛ لأنه من الظواهر الملازمة للحياة، فحيثما وُجدت الحياة وُجد الاختلاف؛ لأن الطبيعة الإنسانية قابلة للتنوع والاختلاف، كما أنه يحقق التكامل في منظومة الكون.

لكن الاختلاف - كأى شيء - يمكن أن يكون عاملاً إيجابياً يحقق الثراء والسعة على مستوى (الفكر والسلوك)، ويمكن أن يكون عاملاً سلبياً يوصل إلى التفرق والتمزق والانقسام، ومن ثم دعا الإسلام إلى احترام الاختلاف والاستفادة من طاقاته وإمكاناته لصالح البشر.

(٣)

وفيما يتصل بترشيد الاختلاف، فإن الشريعة الإسلامية أقرت بوجود الاختلاف بين البشر، لكنها دعت إلى ترشيده واستثماره بحيث يصب في مصلحة الناس، وإلا أصبح مصدر تهديد لحياتهم ومعاشهم.

وحتى يحقق الاختلاف هدفه ومقصده؛ كان من الضروري أن يحاط بأداب وقواعد منهجية؛ تساعد المختلفين على الوصول للرأي السديد، وتمنع تحوُّله إلى أداة لتمزيق شمل الأمة وإضعافها.

- فمن هذه القواعد: « احترام الرأي الآخر »، وعدم تسفيه صاحبه؛ فلقد اختلف الصحابة ومن بعدهم، فيما بينهم، دون أن يُحَقَّرَ أيُّ منهم رأي الآخر، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

- ومنها: « الإنصاف »، وهو يقتضي أن تضع نفسك مكان الآخر الذي تتحاور معه، وأن تذكر الإيجابيات والسلبيات، وأن تعامله كما تحب أن يعاملك، كما في قوله ﷺ: « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »^(١).
- ومنها كذلك: « حسن الظن بالمخالف »؛ لأن إساءة الظن توسع قاعدة الخلاف، وتفتح باب الشر والفساد، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

(٤)

وفيما يتصل بدور الاختلاف في حياة البشر، فإن القانون الإلهي في ذلك هو أن الاختلاف المذموم يُعَدُّ من أسباب انهيار الأمم وسقوط الدول والممالك؛ تطبيقاً للحديث النبوي « فَإِنَّ مَن كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا »^(٢) وفي رواية: « فَأَهْلِكُوا »^(٣)

ولا شك أن الاختلاف الذي يُحَقِّق هذه النتيجة يكون اختلافاً حول الكليات والثوابت التي تقوم عليها حياة الجماعة البشرية الواحدة، أو المجتمع الذي يعيش على أرض واحدة؛ ومن ثم فإن الاختلاف حولها يفتح الطريق أمام أعداء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣)، عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يُذكر في الأشخاص والملازمة، رقم (٢٤١٠)، عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب اقروا القرآن ما اتلفت عليه قلوبكم، رقم (٥٠٦٠)، عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

الخارج، وتضعف قدرة المجتمع على التماسك والمقاومة؛ ومن ثم تبدأ عوامل الانهيار في الحدوث؛ لذا تنبّه قادة الفكر السياسي والاجتماعي إلى ضرورة الدعوة إلى الاتحاد؛ لأن في الاتحاد قوة، وفي الفرقة والتنازع ضعفًا وهلاكًا.

أما الاختلاف بين الفقهاء فيما يجتهدون فيه من أحكام النوازل أو الوقائع التي تعرض عليهم، فهو أمر محمود؛ لأنه يعطي مرونة للفقهاء؛ كي يختاروا من هذه الاجتهادات ما يحقق المصلحة ويرفع الحرج والمشقة، وبذلك يكون الخلاف أو الاختلاف في هذه الحالة رحمةً وبابًا واسعًا لتحقيق مصالح الناس، وهي من أهم مقاصد الشريعة.

(٥)

ونستخلص مما سبق:

- ١ - أن الاختلاف يمكن أن يكون ضمن عناصر القوة أو عناصر الضعف، فإذا ما أحسن استثمار الاختلاف؛ فإنه يصبح أحد عناصر القوة في المجتمع، أما إذا لم يستثمر؛ فإنه يصير عنصرًا من عناصر الضعف والتراجع الحضاري.
- ٢ - أن مما يميز الثقافة الإسلامية في دعوتها إلى احترام الاختلاف هو أنها تفصل بين ما يجوز فيه الخلاف وما لا يجوز؛ إذ ليس الاختلاف أو الخلاف أمرًا مطلقًا، ومطلوبًا لذاته، وإنما يكون من أجل رعاية الصالح العام للمجتمع.



قانون التساوي والتباين

(١)

التساوي: مصدر الفعل « تساوى »، ويقال: تَسَاوَيَا فِي كَذَا: تَمَآثَلَا وتَعَادَلَا^(١).
والتباين: مصدر الفعل « تباين »، ويقال: تَبَايَنَّا: بَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ
الْآخَرِ. ويقال: تَبَايَنَ مَا بَيْنَهُمَا: افترقا وتهاجرا. وتباين اللَّفْظَانِ - عند المناطق - :
اختلف مفهوم مدلوليهما، كالإنسان والفرس^(٢).

ومن قوانين القرآن الكريم: التسوية في الحُكْم بين الأمور المتماثلة،
والاختلاف بين غير المتماثلة؛ لأن الله ﷻ - كما قال ابن تيمية - كما يفرق بين
الأمور المختلفة [في النتائج والأحكام في الدنيا والآخرة] فإنه يجمع ويُسوِّي
بين الأمور المتماثلة؛ فيحكم في الشيء خَلْقًا وَأَمْرًا بِحُكْمٍ مِثْلِهِ، فلا يفرق بين
متماثلين، ولا يسوي بين شيئين غير متماثلين، بل إن كانا مختلفين متضادين لم
يسو بينهما^(٣).

(٢)

ومن الأدلة على قانون التساوي بين الأمور المتماثلة:

١ - قوله تعالى: ﴿ سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [البقرة: ٢١١].

قال القرطبي في تفسيره: قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ ﴾
لفظ عام لجميع الناس، فاللفظ منسحب على كل مُبَدِّلٍ نِعْمَةَ اللَّهِ، أي: فيصيب
كُلُّ مُبَدِّلٍ نِعْمَةَ اللَّهِ الْعِقَابُ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ، ولم يقل: فَإِنَّ اللَّهَ يَعَاقِبُهُمْ، وإنما

(١) المعجم الوسيط، مادة (س و ي)، (ص ٤٨٤).

(٢) المرجع السابق، مادة (ب ي ن)، (ص ٨٢).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٩ / ١٣). والسنن الإلهية، للدكتور عبد الكريم زيدان (ص ١٦٤).

قال: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾؛ ليشعرنا بأن هذا من سنَّته العامة التي تجري على المبدلين لنعمة الله في الحاضر والمستقبل، كما جرت على المبدلين السابقين في الزمن الماضي^(١).

٢ - وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢].

والمعنى أن عذاب الله لا يقتصر على مَنْ وقع عليهم ذلك العذاب، وإنما يشاركهم في العقوبة مَنْ شاركهم في الفعل أو التصرف الذي استحقوا به العقوبة؛ لأن الأحكام تتساوى إذا تساوت الأفعال.

٣ - وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نُنَبِّهِكَ الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾ ثُمَّ نُنَبِّهِهُمْ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٨].

والمراد بالأوليين: السابقون من المكذبين للرسل والمخالفين لما جاؤوهم به، والمراد بالآخرين: أمثال السابقين من المجرمين اللاحقين، الذين كذبوا الرسل وخالفوا ما جاؤوهم به.

(٣)

ومن الأدلة على قانون الاختلاف بين الأمور المختلفة:

١ - قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ أَلْبَسَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

ففي الآية حكم عام على نفي المساواة عند الله تعالى بين النوعين: الخبيث والطيب من الأشياء والأفعال والأشخاص؛ فلكل واحد منهما حكم يليق به ويناسبه؛ فالمساواة إذن منتفية بين النوعين: الخبيث والطيب؛ ومن ثم لا يستويان في الأحكام، فالعبرة بصفة الشيء وما هو عليه من خبيث أو طيب؛ فاتقوا الله

(١) تفسير القرطبي (٢٨/٣)، وتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (٢٦٨/٢).

يا أصحاب العقول الراجحة، ولا تغترُّوا بكثرة المال الخبيث، ولا بكثرة أهل الباطل والفساد الخبيثين؛ فإن تقوى الله هي التي تجعلكم في زمرة الطيبين الفائزين في الدنيا والآخرة^(١).

٢ - قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۚ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۚ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢].

فقد نفت الآيات التسوية بين المختلفين في البشر، أو الظواهر الكونية؛ لأن لكل واحد منهما حكمه الذي يليق به ويناسبه.

يقول ابن كثير: «كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة، كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات»^(٢).

٣ - قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].
فقد نفت الآية التسوية بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون؛ لأنهما لا يتساويان في الأوصاف والمعاني، ولا يتساويان كذلك في الأحكام المتصلة بكل منهما. والمعنى: قل يا محمد ﷺ لقومك: هل يستوي الذين يعلمون ما لهم في طاعتهم لربهم من الثواب، وما عليهم في معصيتهم إياه من التبعات، والذين لا يعلمون ذلك، فهم يخطئون في عشواء لا يرجون بحسن أعمالهم خيراً، ولا يخافون بسيئها شراً، يقول: ما هذان بمتساويين^(٣).

٤ - قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِّمَّنْهُمْ وَمَآئِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].
والمعنى - كما ذكر الطبري - : أم ظن الذين اجتروا السيئات من الأعمال

(١) تفسير القرطبي (٣٢٧/٦)، وتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (١٢٢/٧ - ١٢٤).

(٢) تفسير ابن كثير (ص ١٠٩٧).

(٣) تفسير الطبري (١٧٧/٢٠).

في الدنيا، وكذبوا رسل الله، وخالفوا أمر ربهم، وعبدوا غيره، أن نجعلهم في الآخرة كالذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وعملوا الصالحات؛ فأطاعوا الله، وأخلصوا له العبادة دون ما سواه من الأنداد والآلهة؟ كلاً ما كان الله ليفعل ذلك؛ لقد ميز بين الفريقين، فجعل حزب الإيمان في الجنة، وحزب الكفر في السعير... قال قتادة: «لعمري لقد تفرق القوم في الدنيا، وتفرقوا عند الموت، فتباينوا في المصير»^(١).

٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤].

والمعنى - كما ذكر الطبري -: لا تستوي حسنة الذين قالوا: «ربنا الله»، ثم استقاموا، فأحسنوا في قولهم وإجابتهم ربهم إلى ما دعاهم إليه من طاعته، وسيئة الذين قالوا: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون»، فكَذلك لا تستوي عند الله أحوالهم ومنازلهم، ولكنها تختلف^(٢).

(٤)

ونستخلص مما سبق:

١ - أن هذا القانون من هداية القرآن الكريم للبشر في هذه الحياة، حيث تتماثل الأحكام في الأمور المتماثلة، وتختلف في الأمور المختلفة، وذلك التماثل والاختلاف يدور مع عدل الله الذي لا يُسوِّي بين المختلفين، ولا يفرق بين المتساوين.

٢ - أن العقل البشري يستطيع أن يستفيد من هذا القانون في كثير من أمور الحياة، سواء في نطاق التشريع أم في نطاق السلوك.



قانون الاستخلاف

(١)

يقال في اللغة: استخلف فلاناً من فلاناً؛ أي: جعله مكانه^(١).
وإنَّ من قوانين الله تعالى في المجتمعات أن يستخلف الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ وقد ورد هذا القانون في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وبمقتضى هذه الآية هناك وعدٌ إلهي للمؤمنين بثلاثة أمور:

الأول: الاستخلاف في الأرض.

الثاني: التمكين للدين الذي ارتضاه لهم.

الثالث: تبديل الأحوال من الخوف إلى الأمن.

والمقصود بالأمر الأول - هنا - هو موقع القيادة والريادة والتوجيه لجماعة المؤمنين، بحيث تتمكن من أداء الدور الحضاري المنوط بها، وقيادة الأمم قيادة روحية تمكن لدين الله في الأرض، وتحول دون ظهور الفساد.

يقول ابن كثير: «هذا وعد من الله لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد»^(٢).

والمقصود بالأمر الثاني - هنا - أن ينتشر الدين، وتصبح له الكلمة الأولى في حياة الناس.

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة (خ ل ف)، (٩/ ٨٣).

(٢) تفسير ابن كثير (ص ٩٤١).

أما المقصود بالأمر الثالث: فهو أن يهيئ الله تعالى الأمن بعد الخوف، ذلك العنصر الذي لا تستقيم الحياة من دونه، ولا يدوم الاستخلاف إلا به. يقول ابن كثير: « وليبدلهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكمًا فيهم »^(١).

(٢)

ولا شك أن الوعود الإلهية قائمة على تحقق الشروط التي تتوفر للجماعة المؤمنة؛ ومن هذه الشروط الإيمان القوي الراسخ الذي تتأسس عليه كل تصرفات الذين آمنوا، بالإضافة إلى العمل الصالح الذي يحقق الصلاح للبلاد والعباد.

وبالتأمل في مسألة الاستخلاف - كما يقول محمد باقر الصدر - نجد أنه عبارة عن علاقة اجتماعية من أربعة أطراف: مُستخلف، ومُستخلف عليه، ومُستخلف؛ فالمُستخلف هو الله تعالى، والمستخلف هو الإنسان وأخوه الإنسان، أي: الإنسانية ككل، والمستخلف عليه هو الأرض وما عليها؛ فالعلاقة الاجتماعية ضمن صيغة الاستخلاف تكون ذات أطراف أربعة^(٢)، وهذه الصيغة ترتبط بوجهة نظر معينة نحو الحياة والكون، بوجهة نظر قائمة بأنه لا سيد ولا مالك ولا إله للكون وللحياة إلا الله ﷻ، وأن دور الإنسان في ممارسة حياته إنما هو دور الاستخلاف، وأي علاقة تنشأ بين الإنسان والطبيعة فهي - في جوهرها - ليست علاقة مالك بمملوك، وإنما هي علاقة أمين على أمانة استؤمن عليها، وأي علاقة تنشأ بين الإنسان وأخيه الإنسان مهما كان المركز الاجتماعي لهذا أو ذاك، فهي علاقة استخلاف وتفاعل بقدر ما يكون هذا الإنسان أو ذاك مؤدياً لواجبه بهذه الخلافة، وليست علاقة سيادة أو ألوهية أو مالكية^(٣).

(١) تفسير ابن كثير (ص ٩٤١).

(٢) لعل المؤلف يقصد بالطرف الرابع هو العلاقات الاجتماعية أو السلوك البشري.

(٣) المدرسة القرآنية، لمحمد باقر الصدر (ص ١٢٨ - ١٢٩).

(٣)

إن الوعد بالاستخلاف هو أحد قوانين الله تعالى في الحياة، وقد قضت سنته أنه يكون لمن تحقق فيهم شرط الاستخلاف، إلى آخر الزمان، وليس إلى زمن بعينه؛ لأن العبرة بعموم الآية أو الألفاظ.

لكن لا بد أن ننتبه إلى أن ما ينقص من شروط الاستخلاف ينقص مثله من الاستخلاف نفسه الذي وعد الله به المؤمنين، فإذا نقص معنى الإيمان فإنه تبعاً لذلك ينقص معنى الاستخلاف، فلا تتحقق كل معانيه من الغلبة والانتصار على الأعداء وحصول الأمن وغير ذلك، وكذلك إذا نقصت الأعمال التي تُحقق معنى الاستخلاف فإن ذلك يؤدي إلى استخلاف ناقص.

(٤)

ومما يؤكد معنى الاستخلاف أن البناء المادي في الكون والبناء الحضاري للاجتماع البشري - يدل على أنه ليس هناك فوضى في الكون، وإنما هناك قوانين حاكمة، وقد انطبقت على صاحب الرسالة نفسه، نصرًا وهزيمة، فعندما قصروا في اتخاذ الأسباب المطلوبة لاستكمال النجاح والانتصار في موقعة «أُحُد» هُزِموا، وقيل لصاحب الرسالة: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] ^(١).

ولكن عندما استكملوا أسباب النصر انتصروا.

وما يُتصور أن أمة من الأمم تُحابى أو تُستثنى من هذه القوانين، وقد طبقت هذه القوانين نفسها على أمتنا خلال الأربعة عشر قرنًا من تاريخها ^(٢).

(١) وقد أخرج الطبري في تفسيره عن أنس رضي الله عنه وغيره من الصحابة والتابعين أن النبي ﷺ قد أصيب في يوم «أُحُد» وكُسِرَت رِباعيته، وشُجَّ رأسه، وسال الدم على وجهه الشريف ﷺ، فقال: «كَيْفَ يُفْلَحُ قَوْمٌ خَضِبُوا نِيْهِم بِالْدم وهو يدعوهم إلى ربهم؟» فأنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَا لَهُمْ عَلَيْهِمْ ذَنْبٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. انظر: تفسير الطبري (٤٢/٦ - ٤٨).

(٢) كيف تعامل مع القرآن؟ للشيخ محمد الغزالي (ص ٧٦).

(٥)

إن الاستخلاف مسؤولية وتكليف شرعي، وليس وسامًا على صدر الأمة، والوعي بمتطلبات الاستخلاف وشروطه يقتضي إعادة استدعاء القرآن الكريم [فهما وتدبراً.. علماً وعملاً] للساحة الثقافية الإسلامية، وإنهاء حالة الهجر والقطيعة بين القرآن والعقل المسلم، بحيث يسترد القرآن مكانته الفكرية والروحية عند المسلم في نظرته إلى الإنسان والكون والحياة في قضايا الفرد والأسرة والمجتمع، وفي جميع المجالات والقواعد المنظمة للحياة.

(٦)

نستخلص مما سبق:

- ١ - أن المجتمعات تحتاج إلى ثقافة الاستخلاف؛ لأنها هي المقابل الطبيعي لثقافة الملك والاستحواذ، ولأنها في المجتمعات الناجحة تعد أحد أسباب النجاح؛ حيث يدرك الفرد أنه مجرد خليفة وليس مالكاً في عمله أو في موقعه.
- ٢ - أن الدور الإلهي في مسألة الاستخلاف يمكن أن يلاحظ في ظهور الحضارات واندثارها، ونشوء الدول وانهارها، وتقدم المجتمعات أو تخلفها، كما يمكن أن يلاحظ أيضاً في كل ما يتعلق بالبشر، في هذه الحياة، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلِيفَةَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٦٥].



قانون المداولة والاستبدال

(١)

المداولة - في اللغة - : جعل الشيء مُتداولًا، تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، ويقال: داول الله الأيام بين الناس: أي: أدارها وصرفها. و« التداول » هو التبادل وانتقال الشيء من يد إلى أخرى، فهو من الفعل « تداول تداولًا فهو متداول والمفعول متداول »^(١).

أما - في الاصطلاح - : فإن المداولة سُنة من سنن الله في الاجتماع البشري، فلا غرو أن تكون الدولة مرة للمبطل ومرة للمحقق، وإنما المضمون دائمًا لصاحب الحق أن تكون له العاقبة، وأن أهل الحق يرثون أهل الباطل في الأرض...

والمداولة في الواقع تكون مبنية على أعمال الناس، ولا تكون لفريق دون آخر جزافيًا، وإنما تكون لمن عرف أسبابها، وفقه سننها، ورعاها حق رعايتها، فإذا عرفتم ذلك وهذا فلا تهنوا ولا تحزنوا، ولله عاقبة الأمور^(٢).

وقد ورد هذا القانون في قوله تعالى: ﴿... وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَذَارٌ لِّهَآبِئِنَّ النَّاسِ ...﴾ [آل عمران: ١٤٠].

(٢)

وإذا كانت هذه الآية المؤكدة لهذا القانون قد نزلت في سياق الحديث عن « معركة أحد »، فقال الله تعالى وهو يخاطب المؤمنين: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ [آل عمران: ١٤٠] يقصد هزيمة أحد، ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠]

(١) المعجم الوسيط، مادة (د و ل)، (ص ٣١٥).

(٢) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (١٤٨/٤). والسنن الإلهية، للدكتور عبد الكريم زيدان (ص ٥٣).

يقصد بذلك هزيمة المشركين في « معركة بدر »، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

لكن العبرة في الآية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذا ما ظهر في كلمة « الأيام » حيث جاءت مطلقة، وكلمة « الناس » التي جاءت تفيد العموم، وهذا ما يؤكد المنهج القرآني في تقرير القوانين والسنن؛ لتكون قاعدة عامة ومطردة، وليست قانوناً خاصاً واستثنائياً.

(٣)

ومن هنا تكون هذه الآية - على وجازتها - قد لخصت قصة التاريخ الإنساني والتطور الاجتماعي منذ وجود الإنسان على الأرض؛ حيث مرت البشرية بحضارات قامت وأخرى فَنِيَتْ بعد أن كانت تمثل بلاداً ونُظُمًا وحكومات، ولعل هذا التعاقب والتداول الحضاري بين الأمم والحضارات يشير إلى قوانين أخرى مصاحبة لقانون التداول، مثل: « قانون الأجل » المحدد لكل حضارة، و« قانون أسباب سقوط الحضارات وأسباب قيامها »؛ حيث إن التداول كما يكون بين الأمم والدول والحضارات، يكون كذلك داخل الأمة الواحدة وداخل الدولة الواحدة وداخل الجماعة الواحدة؛ لأن التداول قانون عام، كما ينطبق على الدول ينطبق كذلك على الأفراد والجماعات.

(٤)

ومن القوانين المصاحبة للتداول « قانون الاستبدال » الذي ورد في عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

والاستبدال: مصدر الفعل « استبدل »، يقال: تَبَدَّلَ الشيء وتَبَدَّلَ به واستبدله واستبدل به، كُله: اتخذ منه بَدَلًا. وَأَبْدَلَ الشيء من الشيء وبَدَّلَه: تَخَذَهُ منه بَدَلًا. وأبدلت الشيء بغيره وبَدَّلَهُ الله من الخوف أَمْنًا. وتبديل الشيء: تغييره

وإن لم تأت ببدل. واستبدل الشيء بغيره وتبدله به إذا أخذه مكانه. والمبادلة: التبادل. والأصل في التبدل تغيير الشيء عن حاله، والأصل في الإبدال جعل شيء مكان شيء آخر^(١).

وهذا القانون يشير إلى إجراء تاريخي لا يتخلف عندما تنهار أسس حضارة عند قوم، عندئذ يكون الاستبدال هو الإجراء المناسب لأصحاب هذه الحضارة، ويكون ذلك مبنياً على أعمال الناس وتصرفاتهم، فهذه الأعمال والتصرفات هي التي تطيل عمر الحضارة أو تقضي عليها تماماً.

ولا يعني الاستبدال الإباداة أو الإفناء التام للدول والمجتمعات، وإنما يعني أن تتحول المجتمعات إلى شبه مجتمعات وإلى شبه أمة؛ لأنها تخلت عن مبادئها وعن رسالتها وعن قيمتها التاريخية.

وقد أكد القرآن الكريم أن استبدال أمة ونشأة أمة أخرى ليس عبثاً، وليس صدفة، ولكنها سنة الله في الأمم لتجديد الحياة، وتداولها بين البشر؛ لكي يستمر العالم وتستمر الحياة.

(٥)

أسباب الاستبدال:

ذكرت آيات القرآن التي تحدثت عن قانون الاستبدال أسباباً محددة تؤدي إلى تحقق قانون الاستبدال، وهي على النحو الآتي:

السبب الأول: الارتداد عن دين الله، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾ [المائدة: ٥٤].

السبب الثاني: التخلي عن تعاليم الله وشريعته، ومن هذه التعاليم الإنفاق في سبيل الله، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿هَآأَنَآ هَآؤَآ تَدْعُونَ لِإِنْفَاقٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ. وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة (ب د ل)، (٤٨/١١).

﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

ويقول السعدي: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ أي: عن الإيمان بالله وامتثال ما يأمركم به، ﴿يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ في التولي^(١).

وقال ابن كثير: من تولى عن نصرته دينه وإقامته شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه، وأشد منعة، وأقوم سبيلاً^(٢).

السبب الثالث: ترك الجهاد وعدم الدفاع عن الدين، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَنْفِرُوا يُعَذِّبَكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا نَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩].

يقول ابن كثير: أي: ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، وتلكؤكم وثقالكم عنه^(٣).

ولا بد من القول بأن هذه الأسباب مجتمعة تجعل الأمة ضعيفة وعاجزة عن الدفاع عن نفسها، فيتجرأ عليها الأعداء، وتستباح أرضها وديارها وأموالها، وعندئذ يعاقبهم الله بالاستبدال، فتزول عنهم المهابة وتضعف شوكتهم، وذلك كله من منطلق أن إيتاء الحضارة لقوم أو سلبها منهم لا يتم إلا عبر مراحل تؤدي كلها إلى سقوط الحضارة التي فقدت أسباب بقائها واستمرارها؛ لذا يكون من الخير للبشرية أن تراح هذه الحضارة، وأن يقوم غيرها مقامها.



(٢) تفسير ابن كثير (ص ٤٢٠).

(١) تفسير السعدي (ص ٧٩١).

(٣) المرجع السابق (ص ٦٠٣).

الفَصْلُ الثَّانِي

قوانين تتعلق بالفرد والمجتمع

وتشمل القوانين الآتية:

- الإحسان.

- التسليم.

- الكَدْح.

- الكَبَد.

- الخروج عن طاعة الله.

- الظلم.

- الترف.

- الطغيان.

- الرفق.

- الحياة الطيبة.

- البرُّ.

- التغيير الاجتماعي.

قانون الإحسان

(١)

الإحسان - في اللغة - : هو فعل ما هو حَسَنٌ، والإجادة، والإتقان^(١).
ويُعَدُّ الإحسان من قوانين القرآن الكريم؛ فهو يطالبنا بذلك فيما يقرب من مائتي آية، ابتداءً من القول إلى الفعل إلى الخُلُق إلى وصف الأشياء إلى غير ذلك، بحيث لم يترك القرآن الكريم شأنًا من شؤون الحياة إلا وأرشدنا فيه إلى هذا القانون وإلى هذه القيمة؛ لما لها من تأثير في الحياة.
وعلى الرغم من هذه العناية الفائقة بهذا القانون، فإن صداه عند المسلمين في العصور الأخيرة جاء ضعيفًا، اللهم إلا من بعض الجوانب التي بقيت فيها فكرة الإحسان حاضرة في فكر وسلوك المسلم، لكنها رغم هذا الحضور لا تمثل أسلوبًا أو منهجًا عامًا؛ ومن ثم خسر المسلمون وخسر معهم العالم هذا القانون الحضاري.

(٢)

ومن هنا فإن السؤال الذي يفرض نفسه هو: ما السبب في غياب قانون الإحسان عن حياة المسلم المعاصر؟ وكيف نستعيد هذه القيمة؟

أسباب غياب الإحسان:

أما أسباب غياب قانون الإحسان عن حياتنا، فترجع في تقديرنا إلى ما يأتي:
أولاً: ضعف الدور الديني في صياغة الحياة المعاصرة، فمع هذا الضعف تم اختزال الدين في الشعائر والأركان الظاهرة وبعض المظاهر الشكلية على حساب الجوهر والروح.

(١) المعجم الوسيط، مادة (ح س ن)، (ص ١٧٩ - ١٨٠).

ثانيًا: القصور التربوي الذي أغفل قيمة الإحسان، باعتبارها قيمة يتربى عليها البشر منذ الصغر، حتى تصبح أسلوبًا ومنهجًا واضحًا في حياتهم.

ثالثًا: الاضطراب الفكري الذي عاشته المجتمعات الإسلامية في العصر الحديث؛ بسبب الصراع الثقافي بين ثقافة وافدة تسعى إلى الهيمنة والسيطرة، وثقافة مستقرة تُعَدُّ بمثابة الهوية والشخصية القومية التي تتميز بها الشعوب الإسلامية عن غيرها.

استعادة الإحسان:

أما كيف نستعيد قانون الإحسان؟ فإني أرى ما يأتي:

أولًا: استعادة الثقافة القرآنية في حياة الناس، بحيث يستمد المسلم قيمه ومبادئه وأسلوب حياته من آيات القرآن الكريم.

ثانيًا: تفعيل قانون الإحسان في جوانب الحياة كافة، بحيث يُكافَأ من يحسن؛ فتكون هذه المكافأة من باب التشجيع له ولغيره على التحلي بقيمة الإحسان والثبات عليها.

ثالثًا: إحياء البرامج والآليات التي تجعل فكرة الإحسان وقانون الإحسان أمرًا ملموسًا في واقع الحياة، مثل: فكرة «القرض الحسن الدوار» الذي يستفيد منه عدد من الأشخاص وليس شخصًا واحدًا، وفكرة «الوقف» أو «الصدقة الجارية» وغيرها من الأفكار التي تقدم خدمات عامة يستفيد منها عدد غير محدود من البشر.

(٣)

وقد مضت سنة الله على أن المحسن لا يُحرَم من ثمرة عمله، وهذا ما دلت عليه آيات كثيرة في القرآن الكريم، نذكر منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ

الْمُحْسِنِينَ ﴿ [يوسف: ٥٦] . وهكذا يؤكد القرآن أن ثمرة الإحسان مضمونة، وأن المحسنين سينالون جزاء إحسانهم في الدنيا والآخرة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] .

ومما ينبغي الالتفات إليه - في هذا الصدد - أن الإحسان قيمة من القيم الإنسانية التي تخدم الحضارة الإنسانية في وسائلها ومقاصدها؛ لأن الخطاب الإسلامي في مجموعه يسعى إلى صياغة الإنسان صياغة تتواءم مع أعباء الاستخلاف والإعمار في الأرض، عن طريق اكتشاف القوانين التي يسير عليها هذا الكون، والانتفاع بها في إعادة صياغة الإنسان.

(٤)

ومن النماذج التي طُبِّقَ عليها هذا القانون نموذج سيدنا يوسف عليه السلام؛ فقد أحسن في كل المواقف التي تعرَّض لها، ولم يصدر عنه سوء تجاه أي أحد، حتى وهو في السجن كان محسناً بشهادة من كانوا معه في السجن، فقالوا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] .

وكانت المكافأة من الله تعالى له بأن مَكَّنَّ له في الأرض، وجعله والياً على « مصر » في فترة عصيبة، واستطاع أن يجنب « مصر » والمنطقة المحيطة خطر المجاعة، وفسَّرَ هو ما حدث له بأن هذا كان جزاء « التقوى والصبر » وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠] .



قانون التسليم

(١)

مما يدل عليه لفظ « التسليم » في اللغة: الانقياد والرضا بالحكم، كما يدل على التحية بالسلام^(١).

والمراد بالتسليم - هنا - : الخضوع والانقياد التام لله. وهذا لا يكون إلا بثلاثة أمور: القلب واللسان والجوارح. ويكون خضوع القلب وانقياده بسلامة الاعتقاد وصحة القصد والنية، ويكون خضوع اللسان وانقياده بالإقرار، ويكون خضوع الجوارح وانقيادها بالعمل والسلوك.

ومن القوانين التي تحدث عنها القرآن الكريم في مقام العلاقة مع الله قانون التسليم. وهذا القانون مستمد من قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ [لقمان: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

وعندما نتأمل هذه الآيات نجد أن هذا القانون قد جاء بصيغة الشرط التي تتضمن فعل الشرط وجوابه، ولئن ظل فعل الشرط دائراً في لفظ التسليم فإن جواب الشرط تنوع في صيغته ما بين ﴿ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾، وبين ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، ومجيء القانون على هذا النحو يؤكد على العلاقة الموضوعية بين الشرط والجزاء، وأنه متى ما تحقق الشرط تحقق بالضرورة الجزاء، وهي الصيغة التي نجدها في كثير من الآيات التي تحدثت عن القوانين الطبيعية والكونية.

(١) المعجم الوسيط، مادة (س ل م)، (ص ٤٦٣).

(٢)

إن التسليم هو روح الإسلام وجوهره؛ لأنه ينطوي على الدخول مع الله تعالى في علاقة « الإسلام » أو « التسليم الكامل » لله تعالى، وهي تمثل أعلى درجات الإيمان والإحسان، وهي تلك العلاقة التي ارتضاها الله من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّي أَلْعَلَّامِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١]، وارتضاها من إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَكَلَّمَهُ الْبَجِينِ ﴾ (١٠٢) وَتَدِينَهُ أَنْ يَتَّخِذَهُ (١٠٤) قَدْ صَدَقَتِ الرُّبُيَّا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٥]، وهي التي دعا الإسلام أتباعه للدخول فيها؛ فقال تعالى: ﴿ يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وهي التي تمثل قمة هرم الإيمان في النفس الإنسانية؛ إذ العبد لا يدخل في التسليم مباشرة، وإنما يتدرج من الإسلام إلى الإيمان إلى الإحسان إلى التسليم، في متتالية إيمانية تصل قِمَّتُهَا عند مرحلة « التسليم »، وفي هذه المرحلة يدخل المسلم في عالم كله سَلَمٌ وكله سلام.. عالم كله ثقة وإطمئنان، وكله رضا واستقرار.. لا حيرة ولا قلق.. ولا شرود ولا ضلال.. سلام مع النفس والضمير.. سلام مع العقل والمنطق.. سلام مع الناس والأحياء.. سلام مع الوجود كله..

(٣)

إن فلسفة التسليم في الإسلام ترمي إلى تصويب علاقة الإنسان مع الله، ومع الطبيعة، ومع أخيه الإنسان، بحيث تتجه إلى حالة من السلام الشامل الذي يؤدي إلى نتائج إيجابية تصبُّ في خدمة الإنسان الفرد والمجتمع؛ إذ من المعلوم أن الأداء الفردي - في أي مجال من مجالات العمل والإنتاج - يعتمد على مدى ما يشعر به العامل من سلام داخلي، وتوافق مع النفس

والضمير، ومن المعلوم كذلك أن الأداء المجتمعي - في أي مجال من مجالات العمل والإنتاج - لا يقوم بصورة حسنة إلا إذا كان هذا الأداء نابعاً من حالة السلام والاستقرار والطمأنينة التي تسهم بصورة مباشرة في رفع معدلات التنمية، وزيادة الإنتاجية، وتحقيق المعيشة الكريمة، وبناء مجتمع العدالة والكفاية.

أضف إلى ما سبق أن التسليم هو العلاج الشافي لكل ما يصيب الإنسان في هذه الحياة من ابتلاء في النفس أو في المال أو في الولد، وهو الذي يقطع الطريق على الشيطان ونوازع النفس الأمارة بالسوء، ومن دون هذا العلاج تظل النفس في حالة قلق وحيرة وعذاب.

كما أن التسليم بما جرى هو الخطوة الأولى نحو تخفيف أثر الابتلاء من ناحية، وتحديد الدور الذي ينبغي على الإنسان القيام به من ناحية أخرى.

(٤)

ومن أروع صور التسليم لله تعالى ما جاء في قوله تعالى عن السيدة مريم عليها السلام: ﴿ فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٦]؛

ومعنى هذه الآية - كما قال القرطبي - أن الله تعالى أمرها على لسان جبريل عليه السلام أو ابنها - على خلاف بين المفسرين - بأن تُمسك عن مخاطبة البشر، وتُحيل على ابنها في ذلك؛ ليرتفع عنها خجلها، وتبين الآية فيقوم عذرها^(١).

وهكذا كان هذا التسليم هو مفتاح النجاة لها، ولكل من تعرّض لكرب أو ألمت به شدة.

(١) تفسير القرطبي (٧/٤١٣).

(٥)

ونستخلص مما سبق:

أن التسليم لله تعالى مفتاح النجاة وطريق السلامة لكل من تعرض للابتلاء في نفسه أو في ماله أو في أبنائه، كما أنه يعد الخطوة الأولى في الاتجاه لرفع آثار الابتلاء والتعامل الإيجابي معه.



قانون الكدح

(١)

يدل « الكدح » - في اللغة - : على السَّعي والشدة في العمل والاجتهاد فيه، والإلحاح في المحاولة^(١).

وإن من قوانين القرآن الكريم التي تتعلق بالحياة « قانون الكدح »، وهذا القانون مستمد من الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦]، وهي تشير إلى أن الإنسان خُلِقَ لِيُظَلَّ طوال مشوار حياته في حالة كدح ومعاناة ومجاهدة للوصول إلى رضا الله تعالى.

ويلفت النظر عند تأمل هذه الآية: الصيغة التي وردت بها، فهي صيغة الجملة الاسمية المؤكدة بأداة التأكيد « إِنَّ »، بالإضافة إلى تأكيد الكدح بصيغة المفعول المطلق الذي يؤكد على الفعل « كَدَحَ »؛ مما يجعل مسألة الكدح في إطار الواقع الثابت والحقيقة المؤكدة التي لا يتطرق إليها الشك مطلقاً.

(٢)

وهذه الآية - كما يقول بعض المعاصرين - تجعل رضا الله ﷻ هدفاً أعلى للإنسان، والإنسان هنا بمعنى الإنسانية، والإنسانية بمجموعها تكدح نحو الله تعالى، والكدح هو السير المستمر بالمعاناة وبالجهد وبالمجاهدة؛ لأن هذا السير ليس سيرة اعتيادية، بل هو سير ارتقائي، هو تصاعُد وتكامل، هو سير تسلق؛ فهؤلاء الذين يتسلقون الجبال؛ ليصلوا إلى القمم، يكدحون نحوها لبلوغ هذه القمم، ويسировون سير معاناة وجهد، كذلك الإنسانية حينما تكدح نحو الله تعالى؛ فإنما هي تتسلق إلى قمم كمالها وتطورها إلى الأفضل باستمرار. وهذا السير الذي يحتوي على المعاناة باستمرار، هذا السير يفترض

(١) المعجم الوسيط، مادة (ك د ح)، (ص ٨٠٨).

طريقاً لا محالة، فإن السير نحو هدف يفترض حتماً طريقاً ممتداً بين السائر وبين ذلك الهدف وهذا الطريق، هو الذي تحدثت عنه الآيات الكريمة في المواضع المتفرقة تحت اسم « سبيل الله » واسم « صراط الله »، هذه الصيغ القرآنية المتعددة كلها تتحدث عن الطريق الذي يفترضه ذلك السير أيضاً^(١).
وكما في قوله تعالى: ﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَأَتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

(٣)

وإذا كان الخطاب في الآية للإنسان بمعنى الإنسانية كلها، فإن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو:

كيف تسيّر الإنسانية كلها نحو الله تعالى؟

من الطبيعي أن تختلف الإنسانية في سيرها نحو الله تعالى، فهناك الإنسانية المؤمنة، وهناك الإنسانية غير المؤمنة، ويختلف موقف كل منهما نحو وجود الله ذاته، فضلاً عن لقاءه والاقتراب منه، ومن باب أولى يختلف موقفهما من التقدم أو السير نحو الله تعالى، ما بين سير وتقدم مدرك ومؤمن بحتمية اللقاء وضرورة الاستعداد له، وبين سير وتقدم آخر غير مقصود وغير مدرك، بل وغير مؤمن بحتمية اللقاء، ومن ثم لا يستعد له بأية درجة من درجات الاستعداد.

إذن فالإنسانية كلها، المؤمنون منهم وغير المؤمنين، يتقدمون نحو الله ويكدحون إلى لقاء الله، سواء منهم من آمن بحتمية اللقاء في النهاية أم من لم يؤمن، والذين لم يؤمنوا حين يتقدمون يصلون في النهاية إلى الله، ولكنهم حين يصلون لا يجدون أمامهم إلا الله الذي يوفيه حسابهم، أما أعمالهم التي

(١) المدرسة القرآنية، لمحمد باقر الصدر (ص ١٧٩ - ١٨٠).

اعتمدوا عليها فإنها ستكون سرايا، طبقاً لما ورد في الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

فاللَّهُ سبحانه الذي تكدح الإنسانية كلها للقائه هو نهاية الطريق، ولكن النهاية ليست نهاية جغرافية؛ لأن الله تعالى لا يحكمه مكان حتى تكون له نهاية، وإنما الله تعالى مع الإنسان على الدوام. والطريق أيضًا لا ينتهي، وإنما هو اقتراب مستمر بقدر التقدم الحقيقي نحو الله، فهو تقدم ارتقاء وتساعد وتكامل، هدفه الوصول إلى مرضاة الله تعالى، وليس سيرًا اعتياديًا تلقائيًا^(١).

(٤)

ونستخلص مما سبق:

أن الإنسان سيسعى ويكدح نحو الله تعالى؛ كي يلقي ربه في النهاية، لكن هناك فرقاً بين سعي وكدح يشعر فيه الإنسان بالمسؤولية عن نفسه وعن الحياة، وسعي وكدح آخر يأتي استجابةً لضرورات العيش والحياة، وتلبيةً للرغبات والشهوات لا أكثر، والقرآن الكريم يوجه الإنسان إلى الطريق المستقيم الذي يجعل كدح الإنسان في الاتجاه الذي يزيه القرآن، ويدعو إليه، والذي عبرت عنه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].



(١) المدرسة القرآنية، لمحمد باقر الصدر (ص ١٨١ - ١٨٢).

قانون الكبد

(١)

الكبد - في اللغة - : هو المشقة والعناء^(١).

وهو من قوانين القرآن الكريم التي تتعلق بحياة الإنسان على الأرض، وهذا القانون مستمد من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]. والمراد بالكبد المشقة والعناء والتعب، والآية تشير إلى أن الإنسان سيحيط به التعب، وتحيط به المشقة في كل أحواله، وهذا ما دلت عليه الصيغة التي وردت في الآية، فلم يقل القرآن الكريم: «لقد خلقنا الإنسان ليكابد أو للمكابدة»، وإنما قال: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ بما تفيد دلالة الظرفية بحرف الجر «في» على أن حياة الإنسان ستكون داخل عنصر الكبد والمعاناة بحيث لا يكاد يخرج منها حتى نهاية العمر.

(٢)

وعندما نعمن النظر في القرآن الكريم نجد أنه لم يكن فقط كتاب عقيدة وشريعة وأخلاق، وإنما بالإضافة إلى ذلك كتاب حكمة ونظرة عميقة للحياة، ووصف دقيق لها، وهو ما يتجلى في هذه الآية؛ فلم يقصد القرآن الكريم إلى إخبارنا بأن الإنسان سيعاني ويكابد، فذلك ما يلمسه الإنسان ويراه ويجربه بنفسه في الحياة، وإنما قصد أن يوجهنا إلى قانون من قوانين الحياة، وكيفية التعامل مع الحياة في ظل هذه الحقيقة.

فالإنسان في حياته يواجه اختيارات متعددة كل منها له مزايا وعيوب، وله منافع وأضرار، وهو يكابد في الحالتين؛ فهو إن امتنع عن اتخاذ القرار المناسب فهو في كبد؛ لأنه قد يحس أنه أخطأ أو فاتته الفرصة. وإذا اتخذ القرار واختار

(١) المعجم الوسيط، مادة (ك ب د)، (ص ٨٠١).

أحد البدائل التي وجدها بين يديه، فهو في كبد أيضاً؛ لأنه ربما يدرك أو يشعر أنه أخطأ فيما أقدم عليه. وإذا قال: «نعم» فهو في كبد، فربما كان عليه أن يقول: «لا».. وإذا قال: «لا» فهو في كبد، فربما كان الخير له أن يقول: «نعم».. وهكذا لا ينجو من الكبد في كل أحواله اتخذ القرار أم لم يتخذه، قام بالعمل أم لم يقم به، قال: «نعم»، أم قال: «لا».

(٣)

وما دامت الحياة تشتمل على تحديات مختلفة من الكبد والمعاناة، فإن السؤال الذي يفرض نفسه علينا هو:

كيف نتعامل مع الكبد الذي سيلازمننا طيلة الحياة؟

والجواب: أن القرآن الكريم قدّم لنا المنهاج القويم الذي نستطيع به أن نواجه الكبد في كل أشكاله وأحواله، وهذا المنهج هو الصبر، الذي يُعتبر من أوسع الأخلاق ذِكْراً في القرآن؛ لما يترتب عليه من نتائج إيجابية، فالصبر هو عُدّة الإنسان عند إقدامه أو إحجامه، عند حركته وعند سكونه، عند استقبال النعم أو فقدانها، عند فرحه وعند حزنه، عند قُوّته وعند ضعفه، عند صحته وعند مرضه...

ومن وصايا القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ خَسِيرٌ ٢﴾ [العصر: ١ - ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفِى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وفي الحديث الشريف: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ

أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبْرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ^(١).

فالصبر والشكر هما جناحا طائر السعادة، وراحة البال، وطمأنينة النفس
تجاه ما يتعرض له الإنسان في حياته من كبد ومعاناة.



(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩)،
عن صهيب رضي الله عنه.

قانون الخروج عن طاعة الله

(١)

يُعبّر القرآن الكريم عن الخروج عن طاعة الله تعالى بأحد الألفاظ الآتية: السيئة، والمعصية، والذنب، والإثم والخطيئة.

ولا شك أن لكل لفظ منها مدلوله الخاص؛ فهو وإن كان يشترك فيها مع غيره في أصل الخروج عن الطاعة، إلا أن لكل منها ظلاً خاصة يتميز بها عن غيرها؛ لأن القرآن لا يكرر الألفاظ، وإنما يعطي لكل منها مدلولاً خاصاً به.

(٢)

فالسيدة تعني - كما ورد في القرآن الكريم - مقابل الحسنه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وتعني الصغيرة من الذنب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجَتَبَّوْا كَبَابِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، فالسيئات هنا تعني الصغائر.

وتعني المصيبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

وقال الراغب الأصفهاني: «السيدة: الفعل القبيحة، وهي ضد الحسنه»^(١). وعلى هذا، فإذا كانت السيدة مقابل الحسنه، فإن الأمر ينظر فيه إلى الأثر الذي ينتج عن الفعل، فالسيدة إذن هي ما يسوء ويقبح، ومن ثم يكون من العدل أن يعاقب المسيء وهو من يرتكب السيئات على إساءته.

وقد جاءت في القرآن الكريم آيات صريحة تبين نتائج عمل السيئات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص ٤٤١).

ذَكَرَ أَزْوَاجَهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾
[غافر: ٤٠].

والمثلية هنا تعني - كما ذكر ابن كثير - « واحدة مثلها »^(١). وعند الطبري تعني: « من عمل بمعصية الله في هذه الحياة الدنيا فلا يجزيه الله في الآخرة إلا سيئة مثلها؛ وذلك أن يعاقبه بها »^(٢). وقال السعدي في تفسيره: « أي: لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه؛ لأن جزاء السيئة السوء »^(٣).

(٣)

أما « المعصية » فهي - كما قال ابن منظور - العصيان، وهو خلاف الطاعة، وعصى العبد ربه: إذا خالف أمره، وعصى فلان أميره يعصيه عصياً وعصياناً ومعصية^(٤).

أما شرعاً فتعني مخالفة الأمر الشرعي. وقيل: المعاصي هي ترك المأمورات، وفعل المحظورات، أو ترك ما أوجب الله وفرض من كتابه، أو على لسان رسول الله ﷺ، وارتكاب ما نهى الله عنه أو رسوله ﷺ من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة^(٥).

وقد جاءت آيات القرآن الكريم صريحة في بيان أن المعاصي تكون سبباً في هلاك أصحابها أو إهلاكهم، على نحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَمَآعَصُوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨]، قال القرطبي في تفسيره: « أي: بعصيانهم، والعصيان خلاف الطاعة، واعتصت النواة؛ إذا اشتدت »^(٦). وقال الطبري: « فعلت بهم ما فعلت من ذلك بما عصوا أمري، وتجاوزوا حدِّي إلى ما نهيتهم عنه »^(٧).

(١) تفسير ابن كثير (ص ١١٦٢). (٢) تفسير الطبري (٢٠/ ٣٣٠).

(٣) تفسير السعدي (ص ٧٣٧).

(٤) لسان العرب، لابن منظور، مادة (ع ص ي)، (١٥/ ٦٧).

(٥) معجم مصطلحات العلوم الشرعية (٣/ ١٥٧٤).

(٦) تفسير الطبري (٢/ ٣١).

(٧) تفسير القرطبي (١/ ٤٣٢).

وقوله تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمُ أَخَذَةً رَابِيَةً﴾ [الحاقة: ١٠]: جاء في تفسير السعدي: « وهذا اسم جنس؛ أي: كل من هؤلاء كذب الرسول الذي أرسله الله إليهم، فأخذ الله الجميع »^(١).

(٤)

وأما لفظ « الذنب » فهو - في اللغة - مصدر ذنب يذنب ذنباً^(٢).
أما في الاصطلاح: فيعني ارتكاب أمر غير مشروع يستوجب الإدانة والعقاب، وأخذه بذنبه: يعني جازاه وعاقبه عليه.
وقد جاءت آيات القرآن الكريم صريحة في بيان أن الذنوب تكون سبباً في هلاك الأمم التي ارتكبت الذنوب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

(٥)

أما لفظ « الإثم »، فهو - في اللغة - من: « أثم يَأْثِمُ إِثْمًا ». وفي الاصطلاح: هو الذنب الذي يَسْتَحِقُّ فاعله العقوبة عليه. والجمع: آثام^(٣)، ومن ذلك ما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [النساء: ١١١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا الشَّاهِدَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

(٦)

أما لفظ « الخطيئة » فهي الذنب، وجمعها « خطايا »، ويختص بإطلاقه

(١) تفسير السعدي (ص ٨٨٢).

(٢) المعجم الوسيط، مادة (ذ ن ب)، (ص ٣٢٧).

(٣) المرجع السابق، مادة (أ ث م)، (ص ٦).

على الذنب المقصود المتعمد^(١)، وقد ورد في القرآن الكريم بهذا المعنى، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا فِي بَرِيئَةٍ فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَظَّتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّكَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

وقد جاءت آيات القرآن الكريم صريحة في أن الخطايا - جمع خطيئة - تكون سبباً في إهلاك القوم الذين يرتكبونها، كقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

(٧)

نستنتج مما سبق:

أن وقوع البشر في هذه الأفعال التي تُعدُّ خروجاً على طاعة الله؛ يؤدي بهم إلى الهلاك، من باب ترتيب الجزاء على أفعال العباد، وترتب الجزاء على أفعال العباد - خيراً أو شراً - هو من قوانين الله التي لا تتخلف ولا تتبدل؛ فكل معصية أو خطيئة تكون سبباً في وقوع العقاب الإلهي لمن ارتكب المعصية أو الخطيئة، وهذا ما يتفق مع مقتضى العدل الإلهي، حيث لا يعاقب الله أحداً من دون ذنب ارتكبه أو جناه، وهذا أيضاً ما اتبعتهُ النظم القانونية في التجريم؛ حيث لا عقوبة ولا جريمة إلا بنص، والنص هو الذي يحدد الفعل المستوجب لو صف الجريمة من ناحية، والمستوجب أيضاً للعقوبة المناسبة من ناحية أخرى.

(٨)

والسؤال هنا:

كيف تكون الذنوب والسيئات والمعاصي والآثام والخطايا سبباً في الإهلاك أو سبباً لوقوع المصائب على الإنسان؟

(١) المعجم الوسيط، مادة (خ ط أ)، (ص ٢٥١).

والجواب:

إذا كانت الذنوب والسيئات والمعاصي - كما ذكر القرآن الكريم - سبباً في وقوع المصائب أو حدوث الهلاك، فإن ذلك يرجع إلى أن هذه المهلكات بالنسبة لمن يرتكبونها كالأمرض بالنسبة للمُصاب، تُضعف مقاومته، وتفتح ثغرة في بدنه أو في نفسه، تتسلل منها الجراثيم والأمراض العضوية والنفسية، أو تُقوّي الجراثيم الموجودة في جسم الإنسان أصلاً؛ ومن ثم تَضعف مناعة الإنسان؛ فيصاب بالأمراض التي تؤدي إلى هلاكه.

وعندما يرتكب البشر الذنوب والمعاصي، فإن مقاومتهم للفساد والانحراف تصبح ضعيفة، فتقوى فيهم عوامل الشر والفساد، ولا تجد مَنْ يتصدى لها، ويتبع ذلك ظهور صور جديدة من الخروج على القواعد الاجتماعية السليمة؛ فتتسع دوائر الفساد والانحراف؛ ويزداد الجسد الاجتماعي ضعفاً؛ ومن ثم يقع الانحلال البطيء الذي يسري في كيان الأمة والمجتمع، حتى ينتهي أمرها؛ فيؤدي إلى انهيارها، عندئذ تكتب الأمة نهايتها بيدها بسبب ذنوبها أو معاصيها، ويكون الهلاك والفناء هو النهاية الطبيعية لها.



قانون الظلم

(١)

الظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه الشرعي، وهو ضد العدل^(١)، وهما معاً يُشكّلان نموذجين للسلوك الإنساني في هذه الحياة، ولكلٍّ منهما عواقبه في الدنيا والآخرة؛ فمن يسلك في حياته سبيل العدل يختلف قطعاً عمّن يسلك سبيل الظلم.

وقد عرّف الإنسان الأول الظلم قبل أن ينزل إلى الأرض؛ حيث ارتكب آدم معصية الأكل من الشجرة هو وزوجته حواء؛ ومن ثم هداهما الله تعالى إلى الاعتراف بأنهما ارتكبا ظلمًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَوْ تَغَفَّرَ لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وعندما بدأت الحياة الإنسانية على الأرض بدأت مسيرة الظلم بأن قتل أحدُ ابني آدم أخاه على نحو ما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ - ٢٩]. فقد سُمي القرآن التهديد بالقتل ظلمًا.

(٢)

ومع اتساع البشرية بدأ التدافع والصراع الإنساني للفوز بمغانم الحياة وثوراتها، وكان ذلك سببًا في ارتكاب العديد من المظالم من الإنسان نحو أخيه

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة (ظ ل م)، (٢٧٣/١٢). والمفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص ٥٣٧). والقاموس القويم للقرآن الكريم، لإبراهيم أحمد عبد الفتاح (٤١٦/١).

الإنسان، وانتقل الظلم من الحالة الفردية إلى الحالة المجتمعية، ومن السلوك العشوائي إلى السلوك المنظم، ومن الظلم البسيط إلى الظلم المركب، ومن ظلم الفرد إلى ظلم الدولة، وهكذا استفحل أمر الظلم حتى قاد أفرادًا وجماعات ودولًا إلى الهلاك.

(٣)

وفي حديث القرآن الكريم عن الظلم لفت النظر إلى ظلم الفرد، وإلى ظلم الجماعة:

- أما الظلم الفردي فقد يكون ظلم الإنسان لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿ فَعِنُّهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ... ﴾ [فاطر: ٣٢]، ولقوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ... ﴾ [هود: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ... ﴾ [الطلاق: ١]، وقد يكون ظلم الإنسان لغيره؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ... ﴾ [الشورى: ٤٢].

- ولفت الأنظار كذلك إلى ظلم الجماعة في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَصَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٩٤]، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ [النساء: ٧٥].

ولفت الأنظار أيضًا إلى ظلم التعدي على حقوق الآخرين، والتعدي على حرمان الله تعالى، وأكل أموال اليتامى، وغير ذلك من المظالم التي تورِد أصحابها موارد التهلكة.

فهناك - إذن - ظلم الفرد، وظلم القوم أو الجماعة.

(٤)

لماذا يظلم الإنسان؟

وقوع الظلم من الإنسان لنفسه أو لغيره يرجع إلى أحد سببين:

السبب الأول: سبب خارجي وهو البيئة، أو المجتمع الذي يشيع فيه الظلم، ويصبح شيئاً عادياً وطبيعياً لا يجد من يقاومه، بل يجد من يدافع عنه ويحميه، وليس معنى ذلك أن البيئة هي المسؤولة، وإنما معناه أن مناخ الظلم قد حاصر الإنسان وسلب منه إنسانيته واستقلاله، وحوله إلى تابعٍ للواقع الظالم الذي يعيش فيه، حتى يصبح جزءاً منه، فيمارس الظلم دون أدنى شعور بالذنب.

وأما السبب الثاني، فهو سبب نفسي يرجع إلى نفسية الظالم، فهي نفسية ليست سوية معتدلة، وإنما نفسية تقودها رغباتها وشهواتها؛ ومن ثم لا تقف عند حد، ولا تعترف بحق الآخرين في الحياة، ولا تستمع إلى أي صوت غير صوت رغباتها ومطالبها.

(٥)

وهناك إجراءات تاريخية لمعاقبة (الظالم الفرد)، (والظالم الجماعة):

- أما الظالم الفرد فإنه يُعاقب بسلب ما أُعطي له من عند الله تعالى مثلما حدث مع صاحب الجنتين الذي قال عنه القرآن الكريم: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ [الكهف: ٣٥] فقد عوقب على ظلمه بأن خسر الجنتين: ﴿ وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ... ﴾ [الكهف: ٤٢].

- أما الظالم الجماعة فهناك عقوبات متنوعة:

منها: أن يسلط الله ظالماً على الجماعة الظالمة، يتولى عليها حاكمٌ ظالم يسومهم سوء العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

والآية تدل على أن الجماعة أو الرعية متى كانت ظالمة؛ فإن الله يسלט عليهم ظالماً مثلهم.

ومنها: أن يهلك الله الأمة الظالمة، لكن هذا الإهلاك لا يتم دفعة واحدة، وإنما يتم عبر قانون الأجل الذي جعله الله سبباً لموت الفرد أو لموت الأمة كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] فقد أضيف الأجل إلى الأمة أو الوجود الجماعي للناس، لا إلى الفرد بالذات.

(٦)

لكنَّ هناك إشكالاً نقف عنده:

فالناس ليسوا كلهم ظالمين عادةً؛ ففيهم الطائعون وفيهم العصاة. فهل يشمل الهلاك الصالحين؟

والنتيجة الطبيعية: هي أن العقاب الموجه إلى الأمة لا يخص الظالمين من أبناء المجتمع، بل يعم أبناء المجتمع على اختلاف هوياتهم وسلوكهم، وهذا ما أكدته القرآن في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وهكذا يكون الظلم أحد أسباب هلاك الأمم والدول والممالك، وأحد أسباب انهيار الحضارات وسقوطها؛ لذا جاءت التحذيرات الشديدة في القرآن الكريم من ارتكاب الظلم أو السكوت عليه؛ لما ينتج عنه من أضرار ومفاسد.

ومن الجدير بالذكر: أن القرآن يُسَوِّي في العقاب بين من يرتكب الظلم ومن يركن إلى الظالمين، ومن يسكت عن الظلم، وأن عقوبة الظالمين في الدنيا تكون بأن يسלט الله عليهم ظالمين أقوى منهم؛ ليزيقهم العذاب بما كسبت أيديهم.

فهناك إذن أربع فئات من المجتمع: (ظالمون، وغير ظالمين، ومتعاونون مع الظالمين، وساكتون على الظلم)، وعندما يأتي العقاب الديني فإنه لا يخص الظالمين وحدهم؛ لأن سائر الفئات ساعدت على انتشار الظلم بشكل مباشر أو غير مباشر، وهذا ما أشار إليه الحديث الشريف في قوله ﷺ لما سُئِلَ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قال: « نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْحَبْتُ »^(١).



(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٢٣٤٦). ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم (٢٨٨٠) - كلاهما عن زينب بنت جحش رضي الله عنها.

قانون الترف

(١)

الترف: هو التَّعَمُّمُ^(١)، والمُتَرَفُّ هو الذي يعيش في سعة من العيش، ويسعى دائماً إلى التَّعَمُّمِ والتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها، والمترفون هم فئة من أغنى أفراد المجتمع، تتمتع بالنفوذ والقوة بسبب ثرائها الفاحش داخل المجتمع. وقد شكَّلت هذه الفئة عبر التاريخ الإنساني موقفاً معادياً للأديان ورموزها، وقد سجل القرآن الكريم ذلك، وهو بصدد القانون المتعلق بهذه الحالة « الترف »، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۚ ﴾^(٢) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۚ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِن رِّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِن أَكْثَر النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٣٦﴾ [سبأ: ٣٥ - ٣٦].

وتكشف هذه الآيات عن عادة مطردة دائمة عند هذه الفئة؛ إذ لم يبعث الله تعالى رسولاً في قرية إلا كذَّبه مترفوها. وذلك راجع إلى تصورهم أنهم في نعمة لا يخالطها أو يعقبها نقمة، وأن ما هم فيه دليل على كرامتهم عند الله ورضاه عنهم؛ ولذلك صرفوا همتهم إلى الانغماس في الشهوات وطلب أسباب العيش المنعم والاعتداد بالأموال والأولاد، ورفض ما وراء ذلك مما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

وقد ردَّ الله سبحانه على هذا المنطق الذي يردده المترفون، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ۚ ﴾ [التوبة: ٥٥].

(٢)

وإذا كان من عادة المترفين أن يكذبوا الرُّسل، وأن يعارضوهم، وأن يقفوا

(١) المعجم الوسيط، مادة (ت ر ف)، (ص ٨٦ - ٨٧).

في طريق دعوتهم، فقد مضت سنة الله فيهم على أن يهلك المترفين لما يصدر منهم من سلوك معارض للقيم والمبادئ التي دعت إليها الشريعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝﴾ (١١) ﴿لَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ۝﴾ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكِلُونَ ﴿ [الأنبياء: ١١ - ١٣] . وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝﴾ [الإسراء: ١٦] .

(٣)

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا:

ما الصلة بين حدوث الترف وحدث الفسق؟ ومن ثم وقوع الهلاك للمترفين؟

والجواب:

أن الترف كان مدعاة للفسق والخروج على القواعد الأخلاقية والدينية، وأن هذا الخروج قد شكّل واقعاً اجتماعياً لعب فيه المترفون دوراً أكبر في نشر الفسق والفساد؛ لأنهم يمتلكون المال الذي يمنحهم القوة والسيطرة وبسط النفوذ، والسعي إلى توجيه الرأي العام بما يتوافق مع مصالحهم وأهدافهم.

إن مشكلة المترفين تكمن في أن انتماءهم الحقيقي يكون للمال الذي جمعوه، وللثروة التي بنوها، وللثروة التي أنشؤوها، وليس للمبادئ والقيم الصالحة؛ لأن من يجمع المال ويبني الثروة يشتد حرصه على الدنيا، ويسعى إلى تأمين نفسه ضد أي محاولة لصده عن الرغبة في جمع مزيد من المال ومزيد من النفوذ والسيطرة. وهكذا يتبوأ المترفون مواقع التحكم والتأثير في المجتمع، ويتجه سعيهم إلى فرض « النموذج » الاقتصادي والاجتماعي الذي يعبر عنهم، فلا يجدون أية مقاومة لهم، وإنما يجدون (بحكم تأثير المال) التشجيع والتأييد والمتابعة؛ فيتحوّل المجتمع على أيديهم من الصلاح إلى الفساد، ومن الطاعة إلى المعصية، ومن الالتزام إلى الفسق، عندئذ يتحقق مراد الله بأن يجعل

المترفين يتحكّمون في الأوضاع الاجتماعية؛ ومن ثمّ ينتشر الفساد، وينطبق عليهم قانون الله ﷻ، فيحلّ بهم وبالمجتمع من حولهم الهلاك والبوار.

(٤)

وهكذا يمثل سلوك « المترفين » خطرًا على المجتمع بما يُحدثه من تحولات اجتماعية تتجه بالمجتمع إلى الفساد والفوضى؛ الأمر الذي يحمل في طياته نذر خطر من وجود ظاهرة « الترف » وظاهرة « المترفين » على المجتمع، وذلك يتطلب السعي إلى محاصرة مظاهر الترف؛ حتى لا يستفحل أمره ويستعصي علاجه، ويعاقب الجميع بنتائجه وآثاره. وهذا ما قدمته الشريعة الإسلامية سواء على المستوى الاقتصادي أو الأخلاقي أو التربوي.



قانون الطغيان

(١)

الطغيان - لغةً - : هو مجاوزة الحد المقبول، كما يُستعمل للدلالة على التجبر والإسراف في الظلم^(١).

وهو - في الاصطلاح - : « تجاوز الحد في العصيان »^(٢).

وإنَّ من أخطر الظواهر التي عرفتھا المجتمعات الإنسانية قديمًا وحديثًا ظاهرة الطغيان، التي أدت إلى نتائج كارثية تتعلق بمصير الدول والأفراد؛ ومن ثم كان من الضروري معرفة القانون الذي يحكم هذه الظاهرة، ولا سيما في عصر تنامي فيه دور الدولة، وتدعمت فيه ظاهرة السلطة التي تُعدُّ من أعظم أسباب صناعة هذه الظاهرة.

والإنسان بطبيعته لا يولد طاغية أو جبارًا، ولكنه يحمل بذور الطغيان، الذي عبر عنه القرآن الكريم بـ « الفجور »، كما يحمل بذور الهداية والطاعة، التي عبر عنها القرآن أيضًا بـ « التقوى »، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾^(٣) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿ [الشمس: ٧، ٨]، فالنفس الإنسانية زُوِّدَتْ بقدرتين متعارضتين، بحيث يكون اختيار إحدى القدرتين مسؤولية الإنسان نفسه.

(٢)

وعلى هذا فإن الطغيان أمر طارئ على النفس وليس أصيلًا فيها، وذلك مرهون بالظروف التي يعيش فيها الإنسان، والاستعداد النفسي عنده، أما أهم ما يحمل الإنسان على الطغيان فهو ما يطرأ عليه من أسباب دنيوية كوجود المال أو السلطة.

(١) المعجم الوسيط، مادة (ط غ ي)، (ص ٥٧٩).

(٢) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص ٥٢٠).

وقد قيل بحق: إن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة، كذلك فإن المال الكثير يمكن أن يكون أحد أسباب الطغيان.

(٣)

ولقد ضرب القرآن الكريم نموذجين - على سبيل المثال - لطغيان المال وطغيان السلطة:

- أما نموذج طغيان المال: فهو نموذج « قارون » الذي قال عنه القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُوزِ مَا إِنَّ مَفَاحِيَهُ لَسَنُوءٌ ۖ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۖ ﴾ [القصص: ٧٦].

فقارون كان في البداية من أتباع موسى عليه السلام، وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه - كما ذكر ابن كثير وغيره^(١) - ولكنه خرج عليهم لما كثر المال لديه كثرة هائلة، فقد كانت مفاتيح الخزائن التي حوت المال تعجز العصبة ذات القوة عن حملها، فكيف بالخزائن التي حوت ذلك المال؟!

ومن ثم كانت كثرة المال سبباً في أن يتجاوز قارون كل الحدود، ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ ﴾ [القصص: ٧٩]، وكان ذلك سبباً في انقسام الناس حوله بين مفتون بشروته يتمنى مثلها، وزاهد مستمسك بدينه وإيمانه. وكانت نهايته - كما ذكر القرآن الكريم - بالخسف به وبشروته: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَشْرَتِهِ ۖ وَلَبِئْسَ الْأَرْضُ مِمَّا كَانَتْ لَهُ مِنْ فِتْنَةٍ يَتَصَرَّوْنَ ۖ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا لَهُمْ أَعْيُنٌ يَصْطَرِّفُونَ ۖ ﴾ [القصص: ٨١].

- أما نموذج طغيان السلطة: فهو طغيان فرعون الذي صرح به القرآن الكريم في عدد من آياته، منها قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۖ ﴾ [طه: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ۖ ﴾ [الفجر: ١١].

وقد يصل طغيان السلطة إلى حد ادعاء الربوبية، إما بلسان الحال أو بلسان المقال، مثلما فعل فرعون، كما في قوله تعالى: ﴿ فَحَسَرَ فَنَادَى ﴿١٢﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ

(١) تفسير ابن كثير (ص ١٠٠٤).

الْأَعْلَى ﴿١١﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿١٢﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٥]. وكانت نهاية الطغيان هي الهلاك والدمار.

(٤)

ومن قوانين الله أن ينزل الجزاء أو العقاب على الطغاة في الحياة الدنيا، فهي سنة ماضية لا تتخلف؛ فقد جرت على الطغاة السابقين، وستجري على الحاضرين والقادمين؛ إذ لن يفلت أحد منهم من عقاب الله في الدنيا والآخرة، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٢﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٣﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٤﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْنَادِ ﴿٥﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿٦﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿٧﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِبَاصٍ عَلِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤].

جاء في تفسير ابن كثير: « وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِبَاصٍ عَلِيمٌ ﴾ قال ابن عباس: يسمع ويرى. يعني: يرصد خلقه فيما يعملون، ويجازي كُلًّا بسعيه في الدنيا والآخرة، وسيعرض الخلائق كلهم عليه، فيحكم فيهم بعده، ويقابل كُلًّا بما يستحقه. وهو المنزه عن الظلم والجور »^(١).

(٥)

أما كيف نواجه ظاهرة الطغيان؟

فإن ذلك يدعونا إلى التذكير بأن ظاهرة الطغيان ظاهرة مرتبطة بالإنسان، عرفتھا المجتمعات قديماً وحديثاً؛ ومن ثم كان هناك أكثر من نموذج للتغلب على هذه الظاهرة:

النموذج الأول: هو النموذج الإسلامي؛ فقد كان الإسلام دائماً يسعى إلى إقامة العدل في الأرض؛ لذا بعث الله تعالى الأنبياء جميعاً لإقامة العدل كما

(١) تفسير ابن كثير (ص ١٤٢٠).

في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

كما تخلص الإسلام من الظاهرة نفسها بتبني «الشورى» فهما وأسلوباً في جميع جوانب الحياة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وتعد الشورى هي أساس الحكم العادل وأساس السعادة في الحياة البشرية؛ ولذلك كان النبي ﷺ أكثر الناس استشارة للصحابة، فكان يشاورهم في كل أمر من الأمور ولا ينفرد هو برأيه، وكذلك كان أبو بكر رضي الله عنه يقول: «إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني»^(١).

النموذج الثاني: هو النموذج الأوربي الذي تخلص من ظاهرة الطغيان بتبني «الديمقراطية» فهما وأسلوباً في الحياة، ليس على المستوى السياسي فقط، وإنما على كل الأصعدة الاجتماعية.

لكن التخلص من الطغيان لن يكون بين عشية وضحاها، وإنما سيحتاج إلى خطة طويلة الأمد لاجتثاث هذا المرض؛ لأن الطغيان ليس مجرد مرض يصيب بعض الأشخاص في ظروف معينة، ولكنه بالإضافة إلى ذلك هو مناخ ثقافي وبيئة اجتماعية ذات قابلية لظاهرة الطغيان بحكم الموروثات الخاطئة، والممارسات التي أسهمت في ترسيخ الطغيان وانتشاره.



(١) تاريخ الطبري، حوادث السنة الحادية عشرة بعد وفاة رسول الله ﷺ، حديث السقيفة (٢١٠/٣).

قانون الرِّفْق

(١)

الرِّفْق: هو اللُّطف ولين الجانب، وهو مقابل الغلظة، والغلظة هي شدة الطبع وقسوته^(١).

ومن قوانين القرآن الكريم - فيما يتصل بالإنسان فردًا أو مجتمعًا - : أن البشر عند التعامل والتواصل يميلون إلى الشخص الذي يتصف بالرفق، وَيَنْفَضُونَ عن الشخص الذي يتسم بالغلظة والعنف، وهذا ما دل عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ قَطًّا غَلِيظًا لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهذا أيضًا ما دلَّت عليه أقوال الرسول ﷺ كما في قوله: « إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ »^(٢)، وقوله: « مَنْ يُحَرِّمِ الرِّفْقَ يُحَرِّمِ الْخَيْرَ »^(٣).

وذلك كله يشير إلى أن الرفق من الأخلاق التي تجمع الناس حول من يستعمل أسلوب الرفق، وأن الغلظة من الأخلاق السيئة التي ينفر منها الناس، بل ولا يصبرون على معاشرة من يتصف بهذه الصفة، وإنما يتعدون عنه، ويتجنبون لقاءه ومعاملته.

(٢)

وإذا تأملنا هذا القانون وجدنا أنه يثير قضية في غاية الأهمية، وهي قضية

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة (ر ف ق)، (١١٨ / ١٠)، ومادة (غ ل ظ)، (٤٤٩ / ٧).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٣)، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٢)، عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

الجانب الأخلاقي في بناء الفرد المسلم وكذلك المجتمع المسلم؛ حيث إن البشر - بحكم الفطرة - يجتمعون حول الشخص الذي يتصف بالرفق في قوله وفعله، ويُقبلون عليه ويأمنون بالحديث معه، وفي الوقت نفسه فإنهم ينفذون وينصرفون عن الشخص الذي يتصف بالغلظة والقسوة في طبعه وسلوكه.

من هنا تبدو أهمية التركيز - في الجانب التربوي - على بناء قاعدة الرفق؛ لما لها من تأثير واضح في اجتماع الناس وإقبالهم على الأشخاص أو الأفكار التي يؤمنون بها ويدعون الناس إليها.

والناظر في سيرة النبي ﷺ يجدها من منطلق أن «اللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»^(١)، وما دام الرفق محبوباً لله تعالى، فإن من الواجب على المسلم أن يحبه، وأن يأخذ به في جميع أمور حياته اقتداءً برسول الله ﷺ.

(٣)

ومن الواجب هنا اتساقاً مع قانون الرفق أن ننادي بضرورة تفعيل هذا القانون في العديد من المؤسسات التربوية والاجتماعية؛ كي يصبح الرفق فلسفة اجتماعية تبدأ من جهاز الحكم في الدولة إلى أصغر موظف، وذلك من منطلق أن الذي يتولى أمور المسلمين إذا ما كان غير رقيق بهم، فإن الفساد سيظهر، والفوضى ستعم، والظلم سيتشر، والحقوق ستضيع، وفي ذلك يوجه الرسول ﷺ الأمة إلى الرفق بقوله: «اللَّهُمَّ، مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشَقَّ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفَقَ بِهِ»^(٢).

(١) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب استئابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إذا عَرَضَ الذمي وغيره بسبِّ النبي ﷺ ولم يصرح، نحو قوله: السام عليك، رقم (٦٩٢٧)، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن رهط من اليهود على النبي ﷺ، فقالوا: «السَّامُ عليك»، فقلت: «بل عليكم السَّام واللعة»، فقال: «يا عائشة، إن الله رقيق يحب الرفق في الأمر كله» قلت: أولم تسمع ما قالوا؟ قال: «قلت: وعليكم».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم (١٨٢٨)، عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

إنَّ كثيرًا من أوجه الفساد والظلم في المجتمع ما كان لها أن تكون لو أن الرفق كان هو القاعدة التي بُنيت عليها المؤسسات الاجتماعية، وكان هو الفلسفة التي تدار بها أجهزة الدولة في تصريف شؤون الرعية، ورعاية مصالح الناس وحاجاتهم، وهذا هو ما طبقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إدارته لشؤون الدولة الإسلامية، ومن ثم استحق أن يلقب بالفاروق، وأن يكون رمزًا للعدالة.

(٤)

ولا بد من الإشارة إلى أن الرفق ليس هدفًا في حد ذاته، وإنما هو أسلوب ووسيلة، والوسائل تختلف بحسب المآلات والنتائج، فإذا كان الرفق سيؤدي إلى زيادة الضرر والفساد، فإنه في هذه الحالة لا يجوز شرعًا استخدام الرفق، مثل: الرفق بأهل الفساد والمنكر؛ فإنه يؤدي إلى زيادة الضرر وانتشار المنكر؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢]، والمراد أن الرفق ينبغي ألا يكون على حساب تطبيق العقوبات الشرعية لحماية المجتمع من الشرور والمفاسد.

ولا بد أيضًا أن نؤكد على التفرقة بين الرفق والتساهل غير الشرعي، فلا يعني الأمر بالرفق أن ندع الناس يفعلون ما يرغبون حتى لو كان فيه مخالفة لأمر الله ولقواعد الشريعة، أو حتى مخالفة للقانون الطبيعي، ولكن الرفق هو أسلوب أخلاقي يتحرك في إطار الضوابط الشرعية ولا يتخطاها؛ ومن ثم فإن التساهل والتيسير تحت عنوان الرفق يكون أمرًا معارضًا لمقاصد الشريعة وأهدافها؛ إذ لا بد أن ينسجم ما هو أخلاقي مع ما هو تشريعي؛ إذ العلاقة بينهما علاقة تكامل وترابط وليست علاقة تعارض وتصادم.



قانون الحياة الطيبة

(١)

الطيب - في اللغة - : خلاف الخبيث، ويقال: أرض طيبة للتي تصلح للنبات؛ وريح طيبة إذا كانت لينة ليست بشديدة؛ وطعمة طيبة إذا كانت حلالاً، وكلمة طيبة إذا لم يكن فيها مكروه، وبلدة طيبة؛ أي: آمنة كثيرة الخير...^(١).

ومن القوانين التي وردت في القرآن الكريم بشأن الحياة والمجتمع « قانون الحياة الطيبة ». وهذا القانون مستمد من قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقد ربط القرآن الكريم بين حصول الحياة الطيبة ووجود العمل الصالح والإيمان من الإنسان ذكراً كان أو أنثى.

وعلى هذا فما المراد بالحياة الطيبة؟

روى ابن كثير في تفسيره عن بعض الصحابة قولهم في تفسير معنى الحياة الطيبة، عن ابن عباس رضي الله عنه أنها الرزق الحلال الطيب، وعن علي رضي الله عنه أنها القناعة، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه، وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا. وبعد أن ذكر هذه التفسيرات علّق قائلاً: والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرَزِقَ كَفَافًا، وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ »^(٢). اهـ^(٣).

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة (ط ي ب)، (١ / ٥٦٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، رقم (١٠٥٤)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه. وهو في المسند للإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، رقم (٦٥٧٢).

(٣) تفسير ابن كثير (ص ٧٤٩)، وتفسير الطبري (١٤ / ٣٥٠ - ٣٥٤).

(٢)

وقد ذهب بعض المعاصرين إلى القول بأن الحياة الطيبة تتحقق بأشياء كثيرة؛ بالرضا والاطمئنان وانسراح الصدر والشعور بالسعادة وطيب العيش، وهذه كلها معاني تنبعث من النفس وتكون في داخل المؤمن، وهي غير متوقفة على الأمور الخارجية كالجمال الوفير والمكان المريح والطعام اللذيذ واللباس الفاخر الثمين، وغير ذلك من الأمور المادية. ولكن السعادة الحقيقية وانسراح الصدر والشعور بالغبطة والهناء هي التي تجعل الحياة طيبة، وهذه المعاني غير متوقفة على الأشياء المادية الخارجية، وعلى ذلك لا تتوقف عليها الحياة الطيبة^(١).

(٣)

والواقع أن الحياة لا يمكن أن تكون طيبة إلا بوصفين كبيرين هما: العمل الصالح والإيمان. فهذان الوصفان هما الأساس الذي تُبنى عليه الحياة الطيبة للفرد والمجتمع.

- فالفرد الذي يُكثر من الأعمال الصالحة التي تعود بالنفع على الناس هو الذي يستحق أن ينال الحياة الطيبة من باب أن الجزاء من جنس العمل؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت: ٤٦]. ولا شك أن الحياة الطيبة تكون من ثمرات العمل الصالح، وأن الحياة الخبيثة تكون من ثمرات العمل السيئ.

والمقصود بالعمل الصالح هنا هو العمل الذي يوافق الشرع ولا يخالفه؛ لأن الشرع يستهدف مصلحة البشر، فكل ما خالفه يكون مناقضاً لهذه المصلحة ومعارضاً لها؛ ومن ثم يمتد صلاح الأعمال إلى كل ما ينفع الناس، ويحقق مصالحهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

(١) السنن الإلهية، للدكتور عبد الكريم زيدان (ص ٢٢٩ - ٢٣٠).

- أما الإيمان فالمقصود به الإيمان بالله ورسوله ﷺ أولاً، والإيمان بالخير والعمل النافع ثانياً؛ لأن إيمان الإنسان بما يقوم به من عمل نافع يدفعه إلى المزيد من العمل الصالح؛ ومن ثم يستمر العطاء ويستمر الخير بلا انقطاع أو توقف؛ لأن الإيمان هو صانع النفس البشرية، وصانع التوجه العالي فيها إلى كل ما ينفع الناس، ويُصلح أمر الحياة، وكلما قوّي الإيمان قوّي تبعاً لذلك الأداء أو السلوك المترتب عليه؛ لذلك يُعدُّ الإيمان بمثابة القاعدة التي يقام عليها العمل الصالح.

ولهذا كله جمع القرآن الكريم، في كثير من آياته، بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن كلا منهما يحتاج إلى الآخر؛ فلا قيمة للإيمان من دون عمل، ولا قيمة للعمل من دون إيمان.

(٤)

ومن النماذج القرآنية التي ترشد إلى الحياة الطيبة ما حكاه القرآن الكريم عن زكريا وزوجه ويحيى في قوله تعالى: ﴿ وَزَكَرَيْنَا إِذَا نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

قال الطبري: إنهم كانوا يسارعون في الخيرات في طاعتنا، والعمل بما يقرّبهم إلينا^(١).

إن المسارعة في الخيرات كانت السبب الأول في أن ينال زكريا ﷺ ما طلبه من ربه، وهو الولد الذي يرثه بعد وفاته في خدمة المعبد، وأن يُصلح الله تعالى أمر زوجته؛ فتحمل بعد أن كانت عقيماً، ووهب الله له منها يحيى ﷺ.

(١) تفسير الطبري (١٦/٣٨٩).

(٥)

وقد يظن كثير من الناس أن الحياة الطيبة لا بد أن تكون كثيرة المال، لكن الواقع أن في الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تجعلها طيبة، فيها الصلة بالله والثقة به، وفيها الصحة والهدوء، وفيها الرضا والبركة ومودة القلوب، وفيها الفرح بالعمل الصالح، وتفريج الكرب وإزالة الهموم، أما المال فهو عنصر واحد من هذه العناصر، ولا يحتاج المرء إلى الإكثار منه حتى يعيش الحياة الطيبة، وإنما يكفي منه القليل الذي يُلبّي الاحتياجات الأساسية للحياة.



قانون البر

(١)

البر: هو الخير الواسع الكثير^(١)، أو هو - كما ذكر ابن عاشور - كمال الخير وشموله في نوعه؛ إذ الخير قد يعظم بالكيفية وبالكمية، وبهما معاً، وما دام البر واسع المعنى فإن كل أمر منه يحتاج إلى مشقة؛ ومن ثم لا يصل إليه كل أحد، وإنما يصل إليه من استوفى شروط الوصول إليه^(٢).

(٢)

وقد ورد هذا القانون في عدة آيات من القرآن الكريم، منها قوله تعالى:

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ
وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ
بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى ... ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقوله
تعالى: ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ... ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقوله تعالى:
﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ... ﴾ [البقرة: ٤٤].

وفي قول الله تعالى في الآية الأولى: ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ ... ﴾
تصحيح لفهم خاطئ كان مهيمناً على أذهان المخاطبين يتصل بمسألة تحويل
القبلة في الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة، فأخذ السفهاء وفي مقدمتهم
يهود المدينة يثيرون الأمر، ويقولون: ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟

(١) المعجم الوسيط، مادة (ب ر ر)، (ص ٤٩).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر ابن عاشور (٥/٤).

ويقولون للمسلمين: إما أنكم كنتم على خطأ فصَلاتكم الأولى إلى بيت المقدس باطلة، وإما أنكم الآن على خطأ فصَلاتكم إلى الكعبة باطلة، فأنزل الله قوله تعالى يصحح أصل المفهوم في موضوع الاتجاه في الصلاة، وبيّن للمسلمين أن تحديد الجهة التي يجب على المصلي أن يتوجه لها؛ لا يعدو أن يكون مسألة شكلية اقتضتها حكمة توجيه المسلمين جميعاً ناحية جهة واحدة، وليس الاتجاه عبادة للجهة؛ فالمضمون هو عبادة الله، والجهات كلها مشارقتها ومغاربها لله.

وعلى هذا فليس البر الحقيقي هو أن تُؤلّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، وفي هذا تحرير لمفاهيم المسلمين من التعلق الفكري والقلبي بالأشكال والرسوم، وإن كان التزامهم بها التزام طاعة لله، ووصلهم بالمضامين الجوهرية التي هي البر الحقيقي^(١).

(٣)

معالم البر:

بعد أن بيّن الله تعالى حقيقة البر انتقل لبيان معالمه وأنواعه فيما يأتي:

الأول: الإيمان الصحيح الكامل بالحقائق الفكرية الكبرى التي هي الأساس الأول لتقويم السلوك، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ ... ﴾.

الثاني: مراعاة ذوي الحاجات من أفراد المجتمع، وذلك بإعطائهم ما فوق الواجب. وهذا يعبر عن مدى الرحمة والتعاون الجماعي، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ وَءَاتَىٰ أَمْوَالَهُ عَلَىٰ حُجَّتِهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ... ﴾، فكل هذا العطاء من باب البر.

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، لعبد الرحمن الميداني (٢/ ٦١١ - ٦١٣).

الثالث: العبادة الخالصة لله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ...﴾.

الرابع: الأساس الأخلاقي الذي بُني على الأساس الأول، وهو الإيمان، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ...﴾.

وهذا الأساس قام على عنصرين: الوفاء بالعهد، والصبر.

- فأما الوفاء بالعهد فهو ضرورة من ضرورات الحياة؛ إذ الحياة في كل جوانبها قائمة على تحقق عنصر المصداقية والثقة بين الناس. وفي هذا من الخير ما فيه.

- أما الصبر فهو الخلق الأعظم الذي يحتاج إليه الإنسان في جميع مواقف الحياة، ولا سيما في المواقف التي أشارت إليها الآية الكريمة، وهي حال «البأساء» وهي شدة الفقر والحاجة، و«الضراء» وهي المصائب في الأموال والأنفس، و«حين البأس» وهو القتال الشديد، فهذه الحالات الثلاث تتعاضد الحاجة فيها إلى الصبر؛ حيث لا يستطيع الإنسان أن يواجه هذه المواقف إلا بالصبر الذي يمدّه بأسباب الثبات والتفكير السليم واتخاذ القرار والتصرف المناسب لما يواجهه.

(٤)

كيفية الوصول إلى البر:

للوصول إلى البر لا بد من تحقق الشروط ووجود الأسس التي لا يوجد البر إلا بها. أعني أن الوصول إلى البر لا بد أن يكون على أساس الإيمان بالله والأعمال الصالحة والأخلاق الكريمة، بالإضافة إلى ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَدْرِيهِ عَلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٩٢].

- فليُكي يصل العبد إلى البر لا بد أن يتحقق الشرط الذي نصت عليه الآية الكريمة، وهو شرط الإنفاق مما يحبه الإنسان، وهذا ما فصله القرطبي في تفسيره: إن التقدير في الآية هو لن تنالوا ثواب البر حتى تنفقوا مما تحبون، أو لن تصلوا إلى الجنة وتُعطوها حتى تنفقوا مما تحبون.

وقيل البر العمل الصالح، وفي الحديث: «عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ، فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ»^(١).

وعن عطاء: لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تصدقوا وأنتم أصحاب أشحاء، تأملون العيش وتخشون الفقر.

وقيل: المعنى: حتى تنفقوا مما تحبون في سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات^(٢).

- وهكذا جاء الإنفاق مما يحبه الإنسان من المال أو المتاع بمثابة الشرط الذي إذا تحقق فإن العبد ينال شرف البر أو شرف الدين، وبذلك يكون الإنفاق قانون الوصول إلى درجة البر.

وهذا ما ذكره ابن عاشور حيث قال: «المقصود من هذه الآية أمران: أولهما: التحريض على الإنفاق والتنويه بأنه من البر. وثانيهما: التنويه بالبر الذي يكون الإنفاق خصلة من خصاله».

ثم يقول: «وقد جعل الإنفاق من نفس المال المحب غاية لانتفاء نوال البر، ومقتضى الغاية أن نوال البر لا يحصل بدونها، وهو مشعر بأن قبل الإنفاق مسافات معنوية في الطريق الموصلة إلى البر، وتلك هي خصال البر كلها، وأن البر لا يحصل إلا بنهايتها، وهو الإنفاق من المحبوب»^(٣).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) تفسير القرطبي (٤/١٣٣).

(٣) تفسير التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر ابن عاشور (٤/٥ - ٦).

(٥)

ونستخلص مما سبق:

ونستخلص مما سبق أن خصال البر كثيرة سواء من ناحية الكم أو من ناحية الكيف، وأنها جامعة لسبل الخير كله، وأن الإنسان لا يصل إلى البر إلا إذا أنفق وأعطى من أجود ما عنده من الخير، وهذا يحتاج إلى تدريب النفس على البذل، والعطاء من قليل البر؛ سعيًا إلى الوصول إلى أعلى درجاته.



قانون التغيير الاجتماعي

(١)

التغيير: مصدر الفعل « غَيَّرَ »، والتغيُّر مصدر الفعل « تَغَيَّرَ »، وهما إعلان متلازمان؛ يقال: غَيَّرْتَهُ فتغيَّرَ؛ فالتغيير - كما عرّفه الجرجاني -: هو إحداث شيء لم يكن قبله، والتغيُّر هو انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى^(١).

وقد استُمدَّ هذا القانون من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

ولقد تحدث القرآن الكريم عن هذا القانون بلغة القضية الشرطية، فقد ربطت الآيات بين « تغيير أحوال القوم » و« تغيير ما بأنفسهم »، ومقتضى ذلك أنه متى ما وُجد التغيير الأول « ما بالنفس »، تحقّق التغيير في « أحوال القوم »، والمقصود بذلك تغيير أنظمة المجتمع وأوضاعه الظاهرة.

ومن هنا فإن تغيير الأنفس يُعدُّ شرطاً أساسياً لحدوث التغيير في المجتمع، إلا أن ذلك لا ينفي التأكيد على ضرورة التغيير الشامل في حياة المجتمع ولكن بصورة متوازنة؛ أي: أن عملية التغيير تمضي في اتجاهين: اتجاه التغيير الفردي أو النفسي للأفراد، واتجاه التغيير الشامل والكلّي؛ حيث يتعاون الجانبان معاً في إحداث التغيير المنشود.

وبعبارة أخرى: فإن التغيير السياسي في أي مجتمع لن يتحقّق إلا عبر التغيير النفسي أو الثقافي الذي يشكل مفاهيم الفرد وأفكاره ومعتقداته عن الحياة؛ لأن التغيير السياسي إذا تم من دون التغيير الداخلي أو الثقافي لكل فرد، فإن النتائج المترتبة عليه لن تكون ذات جدوى، ولن تحقّق الآثار المرجوة لعملية التغيير التي يتطلّع إليها الناس.

(١) التعريفات، للجرجاني (ص ٦٣).

ولتوضيح ذلك نشير إلى أن الإسلام وهو يقدم منهجه للتغيير يجعل التغيير النفسي للأفراد هو الأساس ويسميه « الجهاد الأكبر »، أما تغيير الأوضاع العامة السياسية وغيرها فيسميه « الجهاد الأصغر »، ولما سئل النبي ﷺ عن الجهاد الأكبر قال: « جِهَادُ النَّفْسِ »^(١)؛ وذلك في إشارة إلى التغيير النفسي للإنسان الذي يتكون من الفكر والإرادة، وأن الإنسان - طبقاً للرؤية القرآنية - هو العامل الرئيس المحرك للتغيير.

(٢)

والتغيير الاجتماعي هو القانون الحتمي الذي ينظم حركة الكون والحياة، وهو سنة إلهية ترتبط بالطبيعة الإنسانية، فلا تتوقف ولا تتخلف؛ طبقاً لما ورد في القرآن الكريم ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بُدِيلاً ﴾ [الفتح: ٢٣].

وبناء على ذلك فقد ركزت النظرة القرآنية للتغيير على مسألة التغيير المستمر للحضارات على مدار التاريخ الإنساني؛ حيث صوّرت تطور الحضارات صعوداً وهبوطاً، بصورة متوالية، فحضارة تنشأ وحضارة تموت وتنتهي؛ لأن كل حضارة إنسانية ناشئة لها دورة حياة وأجل محدد ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

(١) قال أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين - ربع المهلكات، كتاب رياضة النفس: « وقال نبينا ﷺ لقوم قدموا من الجهاد: « مرحباً بكم، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ». قيل: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس ». اهـ. وأخرجه البيهقي في الزهد بلفظ قريب، فصل في ترك الدنيا ومخالفة الهوى، رقم (٣٧٣). وقد ذكر العراقي في تخريج أحاديث الإحياء أنه حديث ضعيف، ونقل العجلوني في كشف الخفاء عن الحافظ ابن حجر أن « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » من كلام التابعي إبراهيم بن أبي عبلة. هذا وقد صحّ عند الترمذي في سننه، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً، رقم (١٦٢١)، عن فضالة بن عبيد ؓ أن رسول الله ﷺ قال: « المجاهد من جاهد نفسه ». وقال الترمذي: « حديث حسن صحيح ».

(٣)

مظاهر التغيير النفسي والفكري:

أ - أخلاق الفرد وأخلاق الأمة:

يمثل الإصلاح الأخلاقي مدخلا مهماً في عملية التغيير؛ حيث تظل الأخلاق حجر الزاوية في بناء المجتمع، لكن ذلك لا ينحصر في إطار الأخلاق الفردية فقط، بل يمتد ليشمل أخلاق الأمة أو المجتمع، وبذلك يتحقق تقدم القيم المجتمعية على القيم الفردية.

ومن أهم الأخلاق التي تصبُّ في مصلحة المجتمع: التعاون والتضامن والتكافل والتراحم والمشاركة، فهذه الأخلاق تعكس وعي الفرد بدوره في المجتمع، مما يُعدُّ منطلقاً أساسياً للتغيير الاجتماعي.

ب - العبادة والمعاملة:

تشكّل العبادات في الإسلام « الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج » محور العلاقة بين الإنسان وربه، لكنها تصبُّ في النهاية في خدمة قضايا المجتمع ومصلحته؛ لقوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣]، ولقوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَنْقُوتٌ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ولقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَصْلَؤَةٌ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

لكن المعاملات تشكل محور العلاقة بين الإنسان والإنسان، وهو ما يتطلب السعي إلى تطوير هذه العلاقة بما يتواءم مع مقاصد الشريعة في بناء المجتمع، ويحقق آمال الناس وتطلعاتهم في حياة قائمة على العدل والرحمة، وبما يجسد الوضع الصحيح للمجتمع الإسلامي الذي يوفر الضمانات الأساسية لمجتمع الحرية والكرامة الإنسانية. وذلك كما ورد في قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ

ج - التنوع في إطار الوحدة:

إذا كان التنوع من دواعي ومقتضيات الاختلاف بين الناس طبقاً لقانون الاختلاف، فإن من الضروري أن يكون هذا التنوع في إطار الوحدة التشريعية التي تحفظ كيان الأمة، وتسمح في الوقت نفسه بإتاحة الفرصة لإطلاق الطاقات العقلية والنفسية كافة؛ للإسهام في بناء المجتمع في إطار الثوابت الدينية والوطنية التي تكفل المصلحة للجميع، من خلال تكامل الوسائل والآليات وتنوع الأفكار والحلول وتنافس القدرات والإمكانات.

(٤)

ومما سبق نستخلص:

أن التغيير الحقيقي هو تغيير الأفكار والمفاهيم والقيم التي لها دور محوري في عملية بناء الهوية والشخصية الحضارية المتميزة، وفي تشكيل عقل الأمة. إذن التغيير لا يطلب لذاته، وإنما للنتائج المترتبة عليه في حياة الفرد والمجتمع، ومن ثم يأتي التغيير السياسي، أو ما يسمى بالتغيير القومي؛ لتكون بمثابة المحصلة النهائية لكل أشكال التغيير الثقافي والاجتماعي والأخلاقي، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم بعبارة: ﴿ مَا يَأْنِيسُهُمْ ﴾.



الفصل الثالث

قوانين تتعلق بالتدبير الإلهي

وتشمل القوانين الآتية:

- الرزق.
- البركة.
- الفتنة والابتلاء.
- النعم.
- التدافع بين الناس.
- قبول الأعمال.
- التمكين.
- النصر.
- الأجل.
- الهداية.
- الضلال.
- المكر.
- الاستدراج.

قانون الرزق

(١)

الرَّزْق - في اللغة - : اسم للشيء المرزوق، وهو كل ما يُتَنَفَّع به؛ مما يؤكل أو يلبس أو غير ذلك^(١).

وهذا القانون مستمد من عدة آيات في القرآن الكريم تحدثت عن قضية الرزق، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

فالأية تكشف عن أن الرزق وعدٌ مقسوم من الله تعالى بضمان الرزق لكل ذي روح تفضلاً منه وإحساناً، فما من كائن يدبُّ على الأرض إلا على الله تعالى ما يقيم له حياته من الطعام والشراب وغير ذلك.

وإذا كان الله تعالى هو الذي يرزق كل من يحتاج إلى الرزق، فإن ذلك يفرض على المسلم أن يطلب الرزق من الله تعالى لا من غيره؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

(٢)

ومع أن الله ضمن الرزق لعباده ولجميع المخلوقات، فإن ذلك لا يعني أن الرزق يأتي للإنسان بغير سعي أو كسب أو اجتهاد، وإنما ربط القرآن الحصول على الرزق بأن يباشر الإنسان الأسباب^(٢)، وأن يأخذ بالوسائل والأدوات التي جعلها الله تعالى طريقاً للوصول إلى الرزق؛ ومن ثم أمر البشر بالسعي إلى كسب الرزق، ونهاهم عن العجز والقعود وانتظار الرزق المقسوم؛ لأن ذلك يتعارض مع خلق الوسائل والأسباب في الإنسان.

(١) المعجم الوسيط، مادة (ر ز ق)، (ص ٣٥٥).

(٢) انظر ما ذكرناه عن قانون السببية في الفصل الأول من هذا الكتاب.

قال القرطبي: « الأمر بتكليف الكسب في الرزق سُنَّةُ اللَّهِ تعالى في عباده، وإن ذلك لا يقدر في التوكل »^(١).

(٣)

ومن الوسائل التي أمر بها القرآن الكريم في هذا الشأن: السَّفر والانتقال، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥] فقد ربط القرآن بين السعي في الأرض والمشي فيها والأكل من رزق الله تعالى، ومقتضى ذلك أن الوصول إلى الرزق لن يأتي إلا بالسعي والانتقال في الأرض.

ومن هذه الوسائل أيضًا: العمل الذي يتخذ فيه الإنسان أشكالًا مختلفة من العمل الزراعي إلى الصناعي إلى التجاري إلى الإدارة، إلى غير ذلك من الأعمال التي يمكن أن يقوم بها الإنسان في هذه الحياة. ولقد جاء القرآن الكريم صريحًا في الإشارة إلى العمل، وذلك في عدة آيات منها:

- قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

- وقوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].

- وقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۚ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۚ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

ومن هذه الآيات نستنتج أن القرآن الكريم جعل العمل ميزانًا للبشر؛ فقيمة الإنسان بما يؤديه من عمل نافع في هذه الحياة، وبما يضيفه بين مولده ومماته من أعمال مفيدة ونافعة للبشرية.

وهنا يلزم أن نعرض لقضية مهمة هي:

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٤١٣).

ما طبيعة العلاقة بين العمل والرزق؟

عند التأمل نلاحظ أن العلاقة بين العمل والرزق هي علاقة السبب والنتيجة؛ فالرزق نتيجة للعمل، وهذا هو الأساس في الأمر، بل إن بعض الأحاديث أكدت أن أفضل الرزق هو ما جاء عن العمل والسعي، كما في قوله ﷺ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ»^(١)، فالعمل - إذن - هو الأساس الذي لا يمكن تجاهله عند الرغبة في الحصول على الرزق، وهنا تصبح العلاقة بين العمل والرزق علاقة طبيعية ومنطقية.

(٤)

لكن ذلك لا ينفي القول بأن بعض الرزق قد يأتي للإنسان من كسب الآخرين، وذلك مثل الوارث الذي يرث من غيره، أو الذي يأتيه هدية أو صدقة أو منحة أو وصية من غيره، لكن هذا لا يمثل الأساس الذي تستند عليه قضية الرزق؛ إذ يظل العمل هو الأساس الأهم في قضية تحصيل الأرزاق وبناء الذات الفردية والاجتماعية وبناء قواعد النهضة والعمران، وعموم المنفعة التي يحققها الإنسان، ويخلقها في الطبيعة الصماء التي تحيط به، والتي تُقدّم نفسها له طبقاً لسنة التسخير.

(٥)

ونستنتج من ذلك:

أن العمل حياة، وأن العمل والسعي هما السبب المباشر لاستجلاب الرزق، ومطلوب من الإنسان أن يعمل، ما دام على قيد الحياة، أن يعمل على قدر طاقته وليس على قدر حاجته، أن يعمل حتى تكون له إضافة للقيمة، أو قيمة مضافة للمسيرة الحضارية، أو التاريخية للإنسان بوصفه خليفة في أرض الله، فالإنسان

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم (٢٠٧٢)، عن المقدم ﷺ.

هو الذي يستطيع إضافة القيمة إلى مفردات وعناصر العالم الذي يعيش فيه، سواء أكانت قيمة أخلاقية أم اجتماعية أم اقتصادية. وهذا بعض ما يستفاد من قوله ﷺ: « إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبَيَّدَ أَحَدُكُمْ فَسِيلَةً، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرُسَهَا فَلْيَفْعَلْ »^(١).



(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ، رقم (١٢٩٨١).

قانون البركة

(١)

البركة - في اللغة - : هي النماء والزيادة، كما تعني السعادة^(١).
وأما في الاصطلاح: فإن البركة هي مطلق الزيادة؛ ولذلك فإن كل بركة زيادة، وليس كل زيادة بركة.

وإن قانونها القرآني مستمد من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرُجَاءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦]. فقد ربطت هذه الآية بين أمرين: وجود الإيمان والتقوى، وحصول الزيادة في النعم والخيرات.

وبعبارة أخرى: إن هذه الآية تشير إلى أثر علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان، وعلاقته في الوقت نفسه مع الطبيعة؛ فلكل منهما تأثير في الآخر؛ حيث إن مؤدَّى هذه العلاقة هو أنه كلما جاءت علاقة الإنسان مع أخيه قائمة على العدالة وابتعدت عن الظلم والاستغلال والعدوان؛ ازدهرت علاقة الإنسان مع الطبيعة وكشفت الطبيعة عن كنوزها، وأخرجت المخبوء من ثرواتها، ونزلت البركات من السماء، وتفرجت الأرض بالنعم والخيرات.

(٢)

وإن هذه العلاقة بين الأمرين شرحتها القرآن الكريم في آيات أخرى: منها: ﴿ وَالْوِاسِقَتُمُوعَالَى الطَّرِيفَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴾ [الجن: ١٦]، ومنها: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن قَوْفِهِمْ وَفِي تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة: ٦٦].

وهكذا يرتبط حصول الرخاء والنعم في الأرض بسلوك الإنسان مع أخيه

(١) المعجم الوسيط، مادة (ب ر ك)، (ص ٥٢).

الإنسان؛ لأنَّ شريعة السماء نزلت من أجل تقرير عدالة توزيع الثروة، فلو طَبَّقَ الإنسان عدالة التوزيع؛ لَمَا وقع في ضيق وقلَّة من ناحية الإنتاج ووفرته.

وإذا تأملنا الشرط الأول في هذا القانون لوجدنا أنه ينطوي على الالتزام بشريعة السماء، أو بتعبير القرآن: ﴿وَالْوِاسْتِقَامَ عَلَى الطَّرِيقَةِ...﴾، ومعلوم أن الاستقامة هنا هي تحقيق العدالة، فإذا تحققت العدالة زادت النِّعم والخيرات، وحلَّت البركة بالأرزاق والأقوات، وعَبَّرت الطبيعة عن تجاوبها مع الإنسان، فأخرجت أفضل ما فيها.

(٣)

أما علاقة الظلم؛ أي: ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، فإن أثرها يمتد إلى الطبيعة؛ حيث تحجب خيراتها، وتخفي ما أودع فيها من الثروات؛ ولذلك يكون الظلم سبباً في حجب النِّعم والخيرات.

وهذا ما أشار إليه القرآن في مواضع عديدة: منها: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]، ومنها ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وهكذا صار للظلم قانونٌ من قوانين الله تعالى في إهلاك القرى وسقوط الحضارات وزوال الدُّول والممالك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

ولأن قوانين الله لا تبدل ولا تتغير، فإنها ما تزال سارية في وقائع الأيام، وقد قَصَّ القرآن الكريم على سبيل العِظة والاعتبار قصص الحوادث والأماكن التي امتلأت بألوان كثيرة من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وأدى هذا الظلم - في النهاية - إلى قلة الخيرات وذهاب البركة؛ مما جعله القرآن الكريم مادة للعظة والاعتبار.

ومن ذلك ما ورد في سورة القلم عن أصحاب الجنة التي أشارت إليها الآيات في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْتُهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَت كَالصَّرِيمِ ﴾ [القلم: ١٧ - ٢٠].

هذا مثل - كما يقول ابن كثير - ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بعثه محمداً ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّا بَلَوْتُهُمْ ﴾ أي: اختبارناهم، ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه، ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أي: حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلاً؛ لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل؛ ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء، ﴿ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴾ أي: فيما حلفوا به. ولهذا حنتهم الله في أيمانهم، فقال: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴾ أي: أصابها آفة سماوية، ﴿ فَأَصْبَحَت كَالصَّرِيمِ ﴾ قال ابن عباس: أي: كالليل الأسود. وقال الثوري، والسدي: مثل الزرع إذا حصد؛ أي: هشماً يبساً.

وقال ابن كثير تعقيماً على قوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَت كَالصَّرِيمِ ﴾: قد حرما خير جنتهم بذنوبهم، واستشهد على ذلك بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِيَّاكُمْ وَالْمَعَاصِي، إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُحْرَمُ بِهِ رِزْقًا قَدْ كَانَ هَيْسَى لَهُ»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَت كَالصَّرِيمِ ﴾ ^(١).

(٤)

ونستخلص مما سبق:

أن هناك علاقة وثيقة بن السلوك الإنساني وحصول البركات في الخيرات والثروات، فإذا سار الإنسان في طريق العدل والإنصاف، فإنه يجني الخير

(١) تفسير ابن كثير (ص ١٣٥٨). والحديث لم أقف عليه بلفظه، ونحوه أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم (٤٠٢٢)، عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقُ بِالدَّنْبِ يُصِيبُهُ».

والبركة، أما إذا سار في طريق المعصية والمخالفة لمنهج الله، فإنه يجني الحرمان والنقص في الأرزاق والخيرات ومقتضى ذلك أن مصير الإنسان مرهون بالسلوك الذي يختاره في هذه الحياة.



قانون الفتنة والابتلاء

(١)

في حديث القرآن الكريم عن الحياة وما يجري فيها من أحداث أو وقائع أشار القرآن إلى كلمتين: الأولى هي كلمة « الفتنة »، والثانية هي كلمة « الابتلاء ». فما المراد بكل منهما؟

والمقصود بالفتنة: الابتلاء والامتحان. وأصلها مأخوذ من قولك: « فَنَنْتُ الفضة والذهب » إذا أذبتهما بالنار؛ ليميز الرديء من الجيد^(١). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢] أي: لا يُخْتَبَرُونَ بالأُمُور التي تميز الصالح منهم من غير الصالح.

وكذلك « الابتلاء » يُقصد به معنى الامتحان والاختبار؛ جاء في (لسان العرب): « بَلَوْتُ الرَّجُلَ بَلَوًا وَبَلَاءً، وَابْتَلَيْتُهُ: اخْتَبَرْتُهُ... وَيُقَالُ: بُلِيَ فُلَانٌ وَابْتُلِيَ: إِذَا امْتَحِنَ »^(٢)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَبِّئُوهُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّاهِقِينَ ﴾ [محمد: ٣١].

فخلاصة المعنى في الكلمتين: هو الاختبار والامتحان للإنسان في الشدة والرخاء، في اليسر والعسر، وفي كل الأمور التي يتعرض فيها البشر للأحوال المتغيرة؛ إذ إنَّ تَغْيِيرَ الأحوال هو الذي يكشف حقيقة الإيمان^(٣).

(٢)

ومن قوانين القرآن الكريم: الابتلاء بالخير والشر:

فَاللَّهُ تَعَالَى يَمْتَحِنُ عِبَادَهُ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَنَبِّئُوهُمْ بِالْأَسْرِ

(١) تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، مادة (ف ت ن)، (٢٩٦/١٤).

(٢) لسان العرب، لابن منظور، مادة (ب ل ا)، (٨٣/١٤).

(٣) السنن الإلهية، للدكتور عبد الكريم زيدان (ص ٨١).

وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴿ [الأنبياء: ٣٥] أي: نختبركم بالمصائب تارة، وبالنعم تارة أخرى؛ لننظر مَنْ يشكر وَمَنْ يكفر، وَمَنْ يصبر وَمَنْ يقنط. وعن ابن عباس: نبليكم بالشر والخير فتنة بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال^(١).

(٣)

كيف نتعامل مع الفتنة والابتلاء؟

إن نقطة البداية في التعامل الصحيح مع الفتنة والابتلاء هي أن ندرك أن الابتلاء قانون من القوانين التي تحكم البشر في هذه الحياة؛ حيث مضت سنة الله أن يمتحن عباده بالشر والخير؛ أي: يختبرهم بما يكون ثقیلاً على نفوسهم من الألم والمرض والهزيمة، كما يختبرهم بما يدخل السرور والسعادة من النعم التي تجعل حياتهم في رفاهية ورخاء وسعة من العيش؛ ليتبين الله - وهو أعلم بهم - ماذا سيصنع البشر، أو حسب التعبير القرآني ﴿ أَيْتُهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧]. ولا شك أن حُسن العمل عند وقوع البلاء وحدوث الفتنة لا يخرج عن أحد أمرين:

١ - الصبر عند الشدائد والأزمات.

٢ - الشكر عند النعم والمسرات.

ولكي يكتمل معنى الاختبار كان من مقتضيات الابتلاء أن يكون أمر الناس في هذه الحياة قائماً على التفاوت والاختلاف في المواهب والقدرات والأرزاق^(٢)، فهذا التفاوت هو الذي يخلق الأجواء التنافسية التي تفيد الحياة والبشر أكثر مما لو كان الناس على قدم المساواة في كل شيء. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ

(١) تفسير ابن كثير (ص ٨٦٤).

(٢) انظر ما ذكرناه في قانون التسخير في الفصل الأول.

أَلْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ [الأنعام: ١٦٥].

من قوانين الله أيضًا: أن يزداد البلاء مع زيادة الإيمان؛ لما ورد في الحديث: سئل رسول الله ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَسْتُرَكُهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»^(١).

لكن ذلك لا يمنع من أن الابتلاء يصيب الكافرين كما يصيب المؤمنين، وأن الابتلاء يكون بالعطاء أو بالمنع، كما يكون بالنعمة والأموال والأولاد، وكذلك يكون بالمحَن والآلام التي يتعرض لها المؤمنون في كل زمان ومكان. وهكذا لا ينجو أحدٌ من قانون الفتنة والابتلاء، ولا تكون زيادة الإيمان مانعة من التعرض للفتن والابتلاءات.

(٤)

إن تفسير ما يجري لنا في الحياة من خلال ثنائية الفتنة والابتلاء - يُقدِّم نظرة متفائلة للحياة، ويمنحنا القدرة على الصبر والتحمُّل والتماسك أمام الشدائد بمختلف أنواعها... بل إنه في أعلى الحالات تصبح الشدائد فرصة لاستخراج أفضل ما في البشر من إمكانيات وقدرات لا تخرج عادة إلا عند وقوع الخطر وحدوث الشدائد.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يمنحنا ذلك التفسيرُ الفرصةَ لإنقاذ النفس من الوقوع أو السقوط في آفة الطغيان والاستكبار والغرور بما بين أيدينا من أسباب القوة والنعمة.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٨)، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٥)

ومن ذلك كله نستخلص:

أن ما نتعرض له في هذه الحياة من شدائد وأزمات أو نعم ومسررات - لا يخرج في نهاية الأمر عن قانون من قوانين القرآن الكريم هو قانون الفتنة والابتلاء.



قانون النعم

(١)

النَّعْمَة - في اللغة - : مصدر بمعنى النعيم، وهو الخَفْضُ والدَّعَةُ والمَالُ، وَهُوَ ضِدُّ البَأْسِ^(١)، وتطلق « النعمة » على المتاع والخير الذي يتمتع به الإنسان، كما تطلق على القليل والكثير مما يتمتع به الإنسان. وجمعها: نِعَمٌ^(٢).

وبذلك يكون المقصود بالنعمة كل ما يشعر معه الإنسان بالمتعة في الحياة، أو ما يجلب له السعادة، ويدخل في مفهومها الأشياء المادية كالمال والسكن والمعيشة، والأشياء المعنوية كنعمة الإسلام والحرية والصحة والكرامة، وغير ذلك من الجوانب التي لا يكتمل مفهوم النعيم إلا بها.

ومن العجيب أن السلوك الإنساني - أو في الغالب الأعم منه - في هذه القضية اتسم بكُفْران النعم أو جحودها، والمراد بذلك عدم الإقرار والتسليم بها، وهو أمر يترتب عليه أن تزول النعم وتتبدد؛ لأن وجود النعم في يد الإنسان وزوالها محكوم بقانون خاص بها؛ ومن ثم هناك أفعال وتصرفات تؤدي إلى بقاء النعم، وهناك أفعال وتصرفات تؤدي إلى زوالها.

ومن قوانين القرآن الكريم وجود النعم وزوالها، كما في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكْ يَأْتِيَنَّكَ اللَّهُ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

(٢)

وقد عرض القرآن الكريم نماذج من التاريخ الإنساني لُقُرَى ذُكِر بعضها بالاسم، ولم يُذكَر البعض الآخر لكنها جميعاً اشتركت في سلوك واحد إزاء النعم التي أنعم الله بها عليها.

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة (ن ع م)، (١٢ / ٥٧٩).

(٢) القاموس القويم للقرآن الكريم، لإبراهيم أحمد عبد الفتاح (٢ / ٢٧٤ - ٢٧٥).

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

والمراد بذلك أن الله جعل هذه القرية مثلاً لأهل مكة، ولكل قوم أنعم الله تعالى عليهم بنعمة الأمن والرزق الوفير الواسع، فاستقبلت ذلك كله استقبالا غير لائق، فبدلاً من الشكر وبذل النعمة للآخرين، إذا بهم لا يشكرون ولا يقومون بحق النعمة من البذل والعطاء لمن هم في حاجة، وسيطر عليهم الشعور بأن النعمة لهم وحدهم، فكان من العدل أن يتغير حالهم، وأن تُسلب النعم التي أُعطيت لهم كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾، أي: فحلّ الخوف محل الأمن وحلّ الجوع محل الشبع والارتواء؛ أي: بما كانوا يصنعون من الكفر بأنعم الله، ويجحدون آياته، ويكذبون رسله^(١).

(٣)

ومن النماذج التي ذكرها القرآن الكريم بالاسم نموذج « مملكة سبأ »، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ بَلَدَهُ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَقٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٧].

نلاحظ في هذا النموذج أن الآيات نزلت في قوم سبأ، وقد كان من أخبارهم التي تشير إليها الآيات أنهم كانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وفي عيشتهم، واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وقد بعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزق الله تعالى، ويشكروه على نعمه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك

(١) تفسير ابن كثير (ص ٧٥١)، وتفسير الطبري (١٤/٣٨٦).

ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عما أُمرُوا به؛ أي: أعرضوا عن توحيد الله تعالى؛ فأرسل عليهم السيل العرم، وهو المطر الشديد... ثم بيّن أن ما حلّ بهم من العقاب إنما هو جزاء كفرانهم النعمة التي أنعم الله بها عليهم. وهل يُعاقب إلا الكفور بنعمة الله تعالى؟! وهكذا فإن من سنن الله تعالى فيمن لا يؤدون الشكر على نعم الله أن ينزل عليهم العقاب الذي يستحقونه^(١).

(٤)

وهكذا نستخلص مما سبق:

أن لوجود النعم وزوالها قانونًا مطردًا لا يتخلف؛ لأن النعم جزء من العطاء الإلهي للإنسان في هذه الحياة، ومن ثم فإن موقف الإنسان تجاه هذا العطاء هو الذي يترتب عليه أحد أمرين: إما بقاء النعم وزيادتها، وإما نقصان النعم أو زوالها بالكلية.



(١) تفسير ابن كثير (ص ١٠٨٥).

قانون التدافع بين الناس

(١)

الدَّفْع - في اللغة - : هو الإزالة بقوة، وتدافع القومُ تدافِعًا؛ أي: دفع بعضهم بعضًا^(١).

وإنَّ من قوانين الله تعالى في الكون قانون التدافع بين الناس، ويُستمدُّ هذا القانون من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتِ صُلُوحُكُمْ وَبُيْعُكُمْ وَصَلَوَاتُكُمْ وَمَسَاجِدُكُمْ يُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فالمراد بالتدافع - هنا - : هو أن يدفع كل فريق الفريق الآخر ليزيله من طريقه، وذلك يحدث في سياق التنافس الحضاري بين الدول على النفوذ وقيادة العالم. من منطلق أنَّ الرغبة في السيطرة والقيادة رغبة إنسانية تدعمها قدرات وإمكانات يمتلكها كل طرف، ويسعى من خلالها إلى تأكيد قوته وجدارته.

(٢)

ولا يقتصر التدافع على الدول أو القوى الكبرى التي تتحكم في شؤون العالم، وإنما يمتد ليشمل الحياة الفردية والاجتماعية، بل إنه في داخل الفرد نفسه يحدث التدافع عندما تدخل جرائم أو فيروسات إلى الجسم، فيبدأ القتال بين الجرائم المهاجمة وأجهزة الدفاع بالجسم أو ما يعرف بجهاز المناعة، وتحدد نتيجة هذه المواجهة في ضوء قوة جهاز المناعة أو ضعفه، ومعنى ذلك أن الإنسان في ذاته ليس خارجًا عن دائرة الصراع أو التدافع الذاتي؛ كي يختار بين دوافع الخير ونوازع الشر في نفسه، وفي هذا الاختيار يمارس حرَّيته وكرامته.

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة (د ف ع)، (٨ / ٨٧).

(٣)

أما الحاجة إلى التدافع فلأنه « ينشط أجهزة الإيمان فتتحرك فيه قُواه الداخلية وقواه الإيمانية إذا كانت فاترة، عندها يشعر بالتحدي؛ ويكون هذا سبباً في إمداده بحياة جديدة، وهنا سُنّة الله الكونية التي يجب أن يخضع لها المؤمنون والكافرون... إن الحياة فيها هذا التصادم المستمر بين قُوى ومبادئ مختلفة... وهكذا الحياة... يحاول الكفر أن يفرض نفسه، فتتنشط قُوى الإيمان؛ لكي تبقى، فيبقى الإيمان بعد أن نمت قواه بضغط الكافر عليه »^(١).

(٤)

وربما تقترب نظرية بعض المعاصرين في تفسير التاريخ الإنساني، من أنه قائم على التحدي والاستجابة، من قانون التدافع الذي نتحدث عنه؛ إذ يشكل التحدي في حياة الأمم والأفراد فرصة ذهبية لتحقيق الاستجابة والنهوض الحضاري؛ لأنه يستنفر كل عناصر الأمة، ويحرك المخزون الراكذ من طاقاتها المعطلة، ويجدد عزمها وحيويتها، ويثير حماسها^(٢).

(٥)

إن فهم قانون التدافع يُعدُّ مدخلاً صحيحاً لاسترداد ما فقدناه من مساحة مكانية وحضارية في عالم اليوم، وإصلاح ما أصابنا من نكبات اجتماعية أو سياسية، وهذا يتطلب الجمع بين أمرين - كما يقول الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ - : « الإخلاص العميق للعقيدة والمبدأ، والذكاء العميق أيضاً الذي نستطيع به أن نفتق الحيل؛ حتى نصل إلى ما نريد، والإنسان في عصر الأذكاء لا يستطيع التعامل مع سنة المدافعة أصلاً إذا لم يكن مع هذا القدر من الذكاء... نحن الآن

(١) كيف نتعامل مع القرآن؟ للشيخ محمد الغزالي (ص ٢٠٢).

(٢) توينبي ونظريته التحدي والاستجابة: الحضارة الإسلامية نموذجاً، لزياد عبد الكريم النجم (ص ٥) وما بعدها.

في حاجة ماسّة لسنة المدافعة، وليس أمامنا في هذه الظروف إلا الأخذ بسنن المدافعة، فكيف تحتال لتشق بين الأقوياء طريقاً لك؟^(١).

إن من الحكمة التي نحتاج إليها اليوم: حُسن اختيار الموقع الفاعل والمؤثر لتحقيق مكاسب أو إنجازات مفيدة للقضية الإسلامية، وذلك مجال واسع للحركة والتأثير لا يتطلب إلا الإخلاص من ناحية، والذكاء وحسن التفكير من ناحية أخرى.



(١) كيف نتعامل مع القرآن؟ للشيخ محمد الغزالي (ص ٢٠٤).

قانون قبول الأعمال

(١)

المراد بالأعمال - هُنا - : كل ما يقوم به العبد في حياته من عبادات أو معاملات أو أعمال دنيوية، يتبغى بها أن ينال رضا الله تعالى في الدنيا والآخرة، ومن ثم جاء القانون القرآني الذي يحدد الأعمال المقبولة وغير المقبولة عند الله تعالى؛ حتى يتحرك العبد في دائرة الأعمال المقبولة، ويتبعد عن دائرة الأعمال غير المقبولة.

وهذا القانون « قانون قبول الأعمال » مُستمد من عدة آيات في القرآن الكريم تحدثت بعضها عنه بصورة مباشرة، وتحدثت بعضها الآخر بصورة غير مباشرة.

- أما حديث القرآن عن قبول الأعمال بصورة مباشرة؛ فقد ورد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

- وأما حديثه بصورة غير مباشرة فقد ورد فيها قوله تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَيْبِي عَنِّي كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

(٢)

وهكذا عني القرآن الكريم ببيان قبول الأعمال؛ حتى يحرص الإنسان على ألا يعمل فقط، وإنما أن ينال شرف قبول العمل الذي تقرب به إلى الله تعالى طمعاً في فضله وكرمه.

ومن ثم لفت القرآن الكريم النظر إلى ما كان من شأن إبراهيم

وإسماعيل (عليهما الصلاة والسلام)، عندما كانا يقومان برفع قواعد الكعبة، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

فقد أبرزت الآية حرص إبراهيم وإسماعيل (عليهما الصلاة والسلام) على إدراك القبول من الله لما يقومان به من عمل، وهذا شأن العابد، يريد أن يطمئن إلى أن عمله حظي بالقبول.

وفي قصة ابني آدم جاء قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقد ورد في تفسير ابن كثير: أن ابني آدم اللذين قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، كان أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، وأنهما أمرا أن يقربا قربانا، وأن صاحب الغنم قرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة بها نفسه، وأن صاحب الحرث قرب شر حرثه غير طيبة بها نفسه، وأن الله يتقبل تقبل قربان صاحب الغنم ولم يتقبل قربان صاحب الحرث.

وإذ تقبل الله قربان أحدهما فقد غضب من لم يتقبل قربانه، وحسد أخاه لقبول قربانه دونه.

وروي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «كُونُوا لِقَبُولِ الْعَمَلِ أَشَدَّ اهْتِمَامًا مِنْكُمْ بِالْعَمَلِ. أَلَمْ تَسْمَعُوا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾». وروي أيضًا عن أبي الدرداء عليه السلام أنه كان يقول: «لئن أستيقن أن الله تعالى قد تقبل مني صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾»^(١).

(١) تفسير ابن كثير (ص ٤٠٥).

(٣)

شروط قبول الأعمال عند الله تعالى:

هناك شرطان أساسيان لقبول العمل عند الله تعالى:

الأول: الإخلاص لله تعالى، ومعنى ذلك أنه لكي يقبل العمل لا بد أن يقوم به صاحبه لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته، وليس لأي غرض آخر؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكَ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩]. ولقول النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(١).

وهذه مسألة بين العبد وربّه؛ إذ الإخلاص في القلب، والقلب لا يطلع عليه، ولا يعرف ما يدور فيه إلا خالقه؛ لذا كان الإخلاص من أهم شروط قبول العمل، يؤكد ذلك الحديث القدسي الذي جاء فيه بخصوص قبول الأعمال والتوجه بها إلى الله تعالى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشُرْكُهُ»^(٢). ومعنى الحديث: أنا غني عن أن يشركني غيري؛ فمن عمل عملاً لي ولغيري؛ لم أقبله منه، بل أتركه لذلك الغير.

الثاني: موافقة العمل لمقتضى الشرع؛ إذ لا يقبل العمل الذي جاء مخالفاً للشرع؛ لأنه لا يتصور أن يتقرب العبد إلى الله بعمل فيه معصية لله؛ ومن ثم كان من الطبيعي أن يكون أحد شروط قبول العمل؛ ألا يكون فيه مخالفة لما أمر الله به أو نهى عنه؛ إذ لا يُعبد الله تعالى إلا بطاعته وترك معصيته.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ،

رقم (١)، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرفائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم

(٢٩٨٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤)

وهكذا يحدد هذا القانونُ (المعيارَ) الذي تُقبَلُ به أعمال الإنسان عند الله تعالى؛ كي يُحاسب الإنسان نفسه ويجاهدها؛ ليخلصها من سائر الأغراض والمقاصد التي تحيط به وهو يعمل في هذه الحياة، وحتى تكتمل صورة العبادة عنده؛ بأن يتجه بأعماله كلها إلى وجهة محددة، وفي الوقت نفسه يلفت القرآن النظر إلى موازين قبول الأعمال؛ لكي يتم تحسين وتطوير أعمال الإنسان بما يرفع درجته وشأنه، ويحقق له التميز في الأداء والنتائج.

ومن ثمَّ فإنَّ ما نخرج به من هذا القانون، إذا عزمنا على أداء الأعمال أو شرعنا في أدائها هو أن نحدّد الجهة التي ينبغي علينا أن نتجه إليها من ناحية؛ كي نحظى بالقبول الأعظم وهو من الله تعالى، ومن ناحية أخرى فإن علينا أن نواصل السعي لتحسين وتطوير أعمالنا بما يحقق لها الجودة والتميز.



قانون التمكين

(١)

التمكين: مصدر للفعل « مَكَّنَ »، ويقال: « مَكَّنَ له في الشيء: أي: جعل له عليه سلطاناً »^(١).

ومن استعراض المواضع التي وردت فيها مادة « التمكين »، يتبين أنه قانون من قوانين القرآن الكريم الخاصة بالمسيرة الإنسانية على الأرض؛ إذ القوانين الإنسانية لا تختص بجماعة دون أخرى، ولا بدين دون آخر، وإنما تختص بالإنسان عموماً.

ومن الأمثلة على أن القانون يتعلّق بالإنسان بغضّ النظر عن قضية الإيمان والكفر؛ قوله تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بُيُوتًا لِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَخْدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣١]، كما قال عن قوم ثمود: ﴿ ... وَتَنحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، وفي آية جامعة لكل الأمم والشعوب جاء قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦]، كذلك ورد في سورة الأحقاف ما يؤكد الحقيقة السابقة: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

(١) المعجم الوسيط، مادة (م ك ن)، (ص ٩١٧).

(٢)

فالتمكن لا يتعلق بالإيمان أو الكفر، وإنما يتعلق بالسلوك الذي يصدر عن الإنسان؛ حيث يمثل صورة من صور الابتلاء بالعطاء، ومن ذلك ما أعطاه الله تعالى لسليمان عليه السلام على سبيل الاختبار؛ حيث نجح في الاختبار عندما أدرك أن عطاء الله له كان على سبيل التمكن؛ ليكشف له سلوكه وتصرفه، وذلك في قوله تعالى: ﴿... فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرْيَمٌ ۝﴾ [النمل: ٤٠].

كذلك جاء التمكن ليوسف عليه السلام بعد أن اجتاز الاختبارات التي تعرض لها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧]. ومعنى ذلك أن جزءاً من أجر الإحسان الذي قام به يوسف جاء في صورة التمكن له في الأرض؛ لذلك أكمل بعدها: ﴿وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۝﴾.

ولا يخفى أن التمكن الذي أعطاه الله ليوسف عليه السلام يختلف عن التمكن الذي أعطاه لسليمان عليه السلام؛ حيث وعد الله تعالى يوسف بالتمكن ولم يطلبه يوسف لنفسه، أما سليمان عليه السلام فقد طلب التمكن في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝﴾ [ص: ٣٥].

(٣)

أسباب التمكن:

طبقاً للنظام الذي تعمل به القوانين الاجتماعية والذي يقتضي وجود الأسباب التي تستدعي تحقق القانون، فإن أسباب التمكن التي جاء ذكرها في القرآن الكريم تدور بين ثلاثة أسباب رئيسة، هي: الحفظ والأمانة، ثم العلم،

ثم الأخذ بالأسباب^(١).

فالشخص الذي ينعم الله عليه بنعمة التمكين لا يكون شخصاً عادياً، بل يكون قد تربى تربية خاصة على قيم ومبادئ وتصرفات تجعله أهلاً للتمكين الذي سمّاه الله (رحمة) في قوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

- ومن خلال النماذج التي عرضها القرآن الكريم؛ للدلالة على قانون التمكين، نجد أن من أهم الأسباب: الحفظ والأمانة، لقوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

- أما السبب الثاني فهو العلم، والعلم سبب أصيل من أسباب التمكين، وليس المقصود بذلك العلم الشرعي فقط، إنما المقصود هو العلم بمعناه العام الذي ينصرف إلى كل المعارف والعلوم، أو العلم المادي بالإضافة إلى العلم الديني.

- أما السبب الثالث فهو الأخذ بالأسباب، والمراد بذلك هو الاستعداد بكل الوسائل والإمكانات لتحقيق الأهداف والغايات؛ لأن عدم الأخذ بالأسباب يمثل تعطيلاً للسنن والقوانين، وفشلاً في الانتفاع بها، وحسبنا في هذا الصدد أن نشير إلى ما ورد بشأن ذي القرنين الذي ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤، ٨٥]، وكان من ذلك ارتحاله إلى المشارق والمغارب؛ لينشر فكره وقيمه، وليبشر الأعمال بنفسه، وليغرس قيمة الأخذ بالأسباب فيمن حوله، على نحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿... مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي ...﴾ [الكهف: ٩٥].

(١) انظر: سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، للدكتور رمضان خميس زكي الغريب، الفصل الثاني.

(٤)

شروط التمكين:

- أما شروط التمكين فبعضها شروط عامة، مثل: الإيمان ووجود الجماعة المؤمنة، بالإضافة إلى العمل الجماعي؛ لأن التمكين لا يقوم به أفراد؛ إذ التمكين بمعناه القرآني لا يستطيع أن يحققه أفراد، إنما هو تمكين أمة وجماعة تسعى له وتحيا من أجله^(١).

ومن ناحية أخرى يتضح أن التمكين عمل مؤسسي جماعي لا عمل ذاتي فردي؛ لذلك لا يتحقق على أرض الواقع إلا بإيجاد جماعة مؤمنة بما تقوم به مدركة أبعاد رسالتها ودورها الحضاري.

- أما الشروط الخاصة فيرجع بعضها إلى الصبر على البلاء؛ حيث جعله القرآن سبباً للتمكين كما في قوله تعالى: ﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِيكَ اسْتَضِعُّوْا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۖ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٦٥].

كما يرجع بعضها الآخر إلى التربية الخاصة التي يتربى عليها الأفراد الذين يؤسسون الجماعة المؤمنة، أو العمل المؤسسي؛ لضمان استمرار الروح والمنهج الذي يؤدي في النهاية إلى تحقيق التمكين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

(٥)

ومثلما يقوم التمكين على أسباب وشروط، فإن استمراره ودوامه يقوم أيضاً

(١) انظر: سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، للدكتور رمضان خميس زكي الغريب، الفصل الثالث.

على أسباب وشروط؛ لأن استمرار العمل بالقانون يقتضي استمرار وجود الأسباب والشروط التي أدت إلى وجوده وأداء دوره في تحقيق رسالة الأمة.

(٦)

إن الإيمان بهذا القانون يفتح أبواب الأمل، ويُفجّر طاقات العمل، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن الفجر قادم، وأن الليل سيزول، وأن مع العسر يسراً، وأن بناء الأمم وإقامة الحضارة وتحقيق العمران لا يأتي من دون مقدمات أو أسباب، ولكنه رهنٌ بتوفر الشروط ووجود الأسباب التي تُحقّق التمكين، وتُؤسّس لحضارة جديدة ولعمران جديد، يُسهّم في أن تستعيد الإنسانية وعيها المفقود ورؤوحها المهدرة.



قانون النصر

(١)

النَّصْر - لغة - : يعني التأييد والإعانة^(١).

والنصرُ الذي أقصده - هنا - : هو نصر المؤمنين على عدوهم وأعداء الله، ولقد تحدث القرآن الكريم عن هذا النصر، وبيّن في آيات عديدة أن سنة الله في نصر المؤمنين لا تتغير أبداً؛ لأنها إخبار من الله تعالى، وكل ما أخبرنا به القرآن الكريم فهو حق وصدق، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا حَتَّىٰ أَنهَضَهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١].

ومن هذه الآيات وغيرها نستنتج أن انتصار المؤمنين على عدوهم أمرٌ محسوم؛ لأنه قانون من قوانين الله، في قديم الزمان وحديثه، ومن شأن ذلك أن يُلقي في قلوب المؤمنين بالله الطمأنينة والثقة في وعد الله، الذي لا يخلف الميعاد، وهو ما يهون على المؤمنين ما يلقونه من عنتٍ أو تضيق أو إيذاء أو غير ذلك مما يتعرض له المؤمنون في كل زمان ومكان.

(٢)

عوامل النصر:

تكمن هذه العوامل في عدة أمور يأتي على رأسها الأخذ بأسباب القوة المادية؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ... ﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ وذلك لأن للقوة المادية تأثيراً كبيراً في النفوس، سواء أكانت نفوس المؤمنين أم نفوس الكافرين، وسواء أكانت أدوات القتال

(١) المعجم الوسيط، مادة (ن ص ر)، (ص ٩٦٤).

محدودة ومحصورة أم غير محدودة وغير محصورة، فامتلاك أدوات القتال يعطي المقاتل ثقة وقوة.

- ومن الأسباب المعنوية للنصر « الإيمان »؛ فنصر الله لا يُمنَح إلا للمؤمنين فقط.

ولذلك قال صاحب تفسير المنار عند قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وهي نصٌّ في تعليل النصر بالإيمان^(١)، وهو يقصد بذلك تأثير الإيمان في تحقيق النصر.

- ومنها كذلك « تقوى الله »؛ طبقاً لنص الآية ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، فإمداد الله بالملائكة للمؤمنين إنما كان بسبب تقواهم.

- ومنها « السعي لنصرة دين الله »؛ طبقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]؛ أي: ينصر دينه وينصر أوليائه، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَصْرُوا لِلَّهِ يُصْرِكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. ومعلوم أن الله تعالى ليس بحاجة إلى النصر من أحد، ولكن المراد: إن تنصروا دين الله وأتباعه يتجلى الله تعالى عليكم بنصره وتأيدته لكم. يقول ابن كثير: «فإن الجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كما جاء في الحديث: «مَنْ بَلَغَ ذَا سُلْطَانٍ حَاجَةً مِّنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاغَهَا، ثَبَّتَ اللَّهُ قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

- ومنها « الإعداد النفسي للمعركة » بالتدرب على الصبر والتماسك والمرابطة في المواقع العسكرية وغيرها، وهو ما يعبر عنه اليوم بالتعبئة العامة، حيث لم تُعد الحروب الحديثة مقصورة على ميدان القتال، وإنما اتسعت لتشمل البر والبحر والجو، وتشمل كذلك القدرات الاقتصادية والاجتماعية

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (٣٨/٧). والسنن الإلهية، للدكتور عبد الكريم زيدان (ص ٥٤).

(٢) تفسير ابن كثير (ص ١٢١٩).

والثقافية. وذلك بعض المراد من قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، يقول ابن كثير: «ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: مهما أمكنكم»^(١).

- ومنها «الأخذ بأسباب الحذر والحيلة»؛ حتى لا يفاجأ المسلمون بالقتال وهم غير مستعدين له؛ استجابةً للدعوة القرآنية في قوله تعالى: ﴿وَحِذِّرُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وهذا توجيه صريح بضرورة أن يعيش المؤمنون في وضع اليقظة والتحفظ والمبالغة في الحرص والحذر والاستعداد؛ حتى لا يستغل العدو غفلتهم أو يتجراً عليهم.

(٣)

لماذا يتأخر النصر أحياناً؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تشبه الإجابة عن سؤال آخر هو: لماذا يتأخر الماء في الغليان؟ والجواب: أن القانون الذي يحكم غليان الماء هو وصول درجة الحرارة إلى مائة درجة، فإذا وصلت إلى «٩٠» فإن الماء لا يغلي في هذه الدرجة، ومن ثم فإذا قلنا: إن الغليان قد تأخر، لكان معنى ذلك أنه لم يصل بعدُ إلى الدرجة التي ينطبق عليها قانون الغليان.

وعلى ذلك فإن النصر قد يتأخر؛ لأن أسباب النصر لم تتحقق كاملة، أو لأن الله تعالى يريد نصرًا أكبر مما يريد البشرية، وفي هذه الحالة يتأخر النصر، لكن هذا التأخير يحمل وراءه الخير الكثير؛ لأنه في هذه الحالة لا يكون تأخيرًا بل حكمة وتقديرًا.

إن النصر لا يتحقق طبقًا لرغبات من يخوضون المعركة، وإنما طبقًا لتقدير الله، كما أن الأمور بنتائجها وعواقبها، والعواقب دائمة تكون للمؤمنين في

(١) تفسير ابن كثير (ص ٥٧٩).

نصرهم على أهل الباطل.

أما ما يصيب المؤمنين من أذى واعتداء وتضحيات فوراءه كما ذكرنا حكم كثيرة أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَذَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ١٤٠﴾ وَلِيَمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿[آل عمران: ١٤٠، ١٤١].

فقد ذكرت الآيات بعض الحكم: منها ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ومنها ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾، ومنها ﴿وَلِيَمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ومنها ﴿وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

فكل هذه حكم من وراء مداولة الأيام، فيكون النصر للمؤمنين مرة ولأعدائهم مرة أخرى، وهذه المداولة سنة من سنن الله في الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل؛ ومن ثم لا عجب أن يكون النصر مرة لأهل الباطل ومرة لأهل الحق. لكن هذه المداولة كذلك مرتبطة بالأعمال لا بالنيات، فمن تحقق بأسباب النصر من حسن الاستعداد والتهيؤ نال النصر، ومن لم يتحقق بها كان الأمر عليه لا له.

(٤)

ومن ذلك كله نصل إلى أن المطلوب من المؤمنين، في كل زمان ومكان، أن يتعلقوا بالحقائق القرآنية أكثر من تعلقهم بالواقع الذي يعيشون فيه؛ لأن التعلق بالواقع كثيراً ما يؤدي إلى اليأس والإحباط، أما التعلق بالحقيقة القرآنية فإنه يورث الأمل والاستبشار والتماسك وقوة العزائم، وهذا ما نبه إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾

[يوسف: ١١٠].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أن نصره ينزل على رسله (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى في أحوج الأوقات إلى ذلك»^(١).



(١) تفسير ابن كثير (ص ٦٩١).

قانون الأجل

(١)

الأجل - لغة - : هو المدة، والوقت الذي يُحدّد لانتهاه الشيء أو حلوله^(١). وإن من قوانين الله تعالى في الكون أن لكل شيء أجلاً وعمراً محدداً لا يتجاوزه ولا ينقص عنه؛ ومن ثم لا يمكن استعجال الأمور ولا يمكن كذلك اختزالها واختصارها؛ لأن الزمن والعمر ليسا ملكاً للإنسان، وحتى إذا حاول الإنسان استعجال الأمور فإنها لا تقع استجابة لرغبته، وإنما تقع إذا اكتملت شروط وقوعها وحدوثها، أو أنها إذا وقعت قبل اكتمال هذه الشروط فإن النتائج والعواقب لا تكون عادة سليمة أو إيجابية، وذلك هو ما أكدته الآيات القرآنية ومنها قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

وعلى هذا فإن الأمور في هذا الكون مرهونة بأوقاتها، حتى خلق السموات والأرض روعي فيها إبراز عنصر الزمن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، مع أن الله تعالى الذي خلق الزمن كان بوسع أن يخلقهما في وقت أقصر لا يمكن حسابه؛ لأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: «كن»؛ فيكون.

(٢)

وإذا تأملنا الآيات التي تحدثت عن الأجل فإننا نلاحظ أن بعضها أضيف إلى الفرد: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَنْ يَرُدْ

(١) المعجم الوسيط، مادة (أ ج ل)، (ص ٧).

ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وفي بعضها أضيف إلى الأمة بوصفها مجتمعاً تنشأ بين أفرادها علاقات وصلات، وهذا المجتمع له أجل كذلك؛ فكما أن له حياة فإن له موتاً؛ لأن موت الأمة كموت الفرد طبقاً لقانون الأجل؛ إذ كل ما له حياة لا بد أن يكون له موت في النهاية، وهذا ما أكدت عليه آيات القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٣].

وكما أن موت الفرد يخضع لأجل ولقانون، كذلك الأمم أيضاً لها آجالها المحددة، لكن إذا كان الأجل الفردي يبدو واضحاً فإن الأجل الجماعي لا يبدو كذلك؛ لأن الأفراد عادة ما تختلف آجالهم وأعمارهم، فكيف يكون الأجل بالنسبة للأمة؟

ولا يمكن حلُّ هذا الإشكال إلا بالعودة إلى السنن والقوانين الحاكمة لقيام الأمم أو انهيارها؛ إذ من المعروف أن الناس عادة لا يكونون جميعاً من الظالمين أو المتكبرين، فالناس منهم الظالم وغير الظالم، والمتكبر وغير المتكبر، والمعول في النهاية على الأغلبية أو التيار الغالب في المجتمع، فإذا غلب تيار الظلم حدث الهلاك؛ لأن الظلم عندما يسود وينتشر ولا يجد من يقاومه؛ فإن شئنا الهلاك لا بد أن تتحقق على الرغم من وجود أناس صالحين؛ لأن عقوبة الظلم لا تختص بالظالمين فقط من أبناء المجتمع، وإنما تشمل غيرهم كذلك ممن سكتوا على الظلم ولم يقاوموه؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِّمُوا أَنْتَ اللَّهَ شَكِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]؛ فالعقاب لا يختص إذن بالظالمين وحدهم؛ ومن ثم جاءت الآية الأخرى تحذر من الركون إلى الظالمين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

(٣)

إن فكرة الأجل لا تنحصر فقط عند الأعمار الفردية والجماعية، وإنما تمتد

لتشمل الأفكار والنظريات كما تشمل خلق الإنسان والنبات، وسائر عمليات الخلق والإبداع الإلهي؛ حيث يتم خلق الجنين في تسعة أشهر مع أن الله قادر على أن يخلقه في تسعة أيام، بل في يوم واحد، بل في لحظة، وقادر على أن يجعل النبات يثمر في لحظة واحدة بدلاً من خمسة إلى ستة أشهر كما في القمح، ومن ثلاثة إلى أربعة أشهر كما في الذرة؛ ذلك لكي يلفت نظر الإنسان إلى أهمية عنصر الزمن في كل ما يقوم به، وليس هذا فقط بل إنه حتى في علاج المرض فإن الزمن يعتبر جزءاً من العلاج، وليس مجرد استعمال الدواء؛ إذ الدواء لكي يؤدي دوره في العلاج فإنه يحتاج إلى عنصر الزمن؛ فالزمن في الحقيقة يعتبر البعد الرابع للأشياء بعد الطول والعرض والعمق، ولا بد منه لاستكمال الصورة، وقيام كل عنصر بدوره.



قانون الهداية

(١)

الهداية - في اللغة - هي الدلالة، يقال: هداه للطريق وإلى الطريق: إذا دله عليه، ويقال: هداه الطريق: أي: عرّفه^(١).

والهداية - في الاصطلاح - هي الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب. كما تُطلق على سلوك طريق يوصل إلى المطلوب^(٢).

فهل للهداية قانون؟

لا شك أن للهداية قانوناً؛ لأن الله تعالى خلق الإنسان وزوّده بأسباب الهداية، أي: بالوسائل التي يستعملها في تحصيل الهداية، وهي المرادة في قوله تعالى: ﴿وَاللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

فمن أخذ بهذه الوسائل: السمع والأبصار والأفئدة؛ نال الهداية، ومن لم يأخذ بها لم ينل شيئاً، فالله تعالى لا يهدي الإنسان رغماً عنه، وإنما يدعوه إلى الهداية فقط، والإنسان هو الذي سيختار طريق الهداية أو طريق الضلال.

ومن أسباب الهداية: شرح الصدر لما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ومن أسباب الهداية كذلك: التأمل والتفكير في بديع صنع الله، فمن تأمل الكون بحركاته وسكناته أيقن بأنه صنع الحكيم الخبير، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِثَلِافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة (ه د ي)، (٣٥٥ / ١٥). والمفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص ٨٣٥).

(٢) التعريفات، للجرجاني (ص ٢٥٦).

(٢)

أنواع الهداية:

أ - الهداية العامة:

وهي الهداية المشتركة التي تكون لجميع الخلق، فالله تعالى أعطى كل شيء صورته التي لا يشبه فيها مع غيره ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠]. أعطى كل عضو شكله وهيئته الخاصة به، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال، وهذه الهداية تعم الحيوان، وتعم كذلك الجماد المسخر لما خلق له، فالجماد له هداية تليق به والحيوان له هداية تليق به، وذلك مثل الهداية التي خصَّ الله بها النحل أن تتخذ من الجبال والأشجار بيوتًا في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل: ٦٨].

ب - هداية البيان والدلالة:

وهي هداية التعريف، فالله تعالى عرّف عباده طريق الخير والشر، وطريق النجاة والهلاك، بكل وسائل التعريف والدلالة من دلالة الصنعة على الصانع والخلق على الخالق، وغير ذلك.

ج - هداية التمكين والمعونة:

وهي الهداية التي يمنحها الله تعالى لمن يشاء من خلقه بناءً على ما قدّمه من عمل أو بذلوه من جهد، أو صدّقوا في طلبه والحصول عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ وَقَوْهُمْ ﴾ [محمد: ١٧].

(٣)

وخلاصة ما سبق:

أن الهداية إرادة من الإنسان واستجابة من الله تعالى؛ فمن أخذ بأسباب

الهداية واجتنب موانعها، فإنه طبقًا لقانون الهداية يرزقه الله الهداية والتوفيق والمعونة، ومن لم يأخذ بأسباب الهداية، فإنه أيضًا - طبقًا لقانون الهداية - يُحرّم من الهداية، ويُحرّم من التوفيق والمعونة.



قانون الضلال

(١)

ويطلق الضلال - في اللغة - : على مقابل الاهتداء، من (ضلَّ ضلالاً وضلالة) أي: حاد عن دين أو حق أو طريق، فهو ضالٌّ، وجمعه: ضلَّال وضالُّون^(١).

وقد استخدم القرآن الكريم مادة « ضلَّ » لكل مشتقاتها، لكننا نتوقف عند المصدر منها، وهو « الضلال »؛ حيث ورد في أكثر من خمس وثلاثين موضعاً في القرآن الكريم موصوفاً بكلمة ﴿ مُبِينٍ ﴾ أو ﴿ بَعِيدٍ ﴾ أو ﴿ كَبِيرٍ ﴾، وأحياناً جاءت الكلمة من دون وصف مطلقاً، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [غافر: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [غافر: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا نُزِذُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ [نوح: ٢٤].

وطبقاً للنظام الكوني الذي تحكمه قوانين الله في الكون، فإن الضلال يحكمه قانون يخصه؛ فكما كان للهداية قانون فإن الضلال - وهو مقابل - الهداية ينطبق عليه الأمر ذاته؛ لأنه لا يخلو شيء من الخلق من نظام يصدر عنه ويتم به.

(٢)

أنواع الضلال:

تعددت أنواع الضلال التي تقع من البشر:

- فمنها: ضلال المعتقد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦].

- ومنها: ضلال الطريق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴾ [القلم: ٢٦].

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص ٥٠٩).

- ومنها: ضلال النسيان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

- ومنها: ضلال الغياب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥٢].

- ومنها: ضلال الخطأ البشري، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف: ٩٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [الضحى: ٧].

- ومنها: ضلال اختفاء المعالم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [السجدة: ١٠].

- ومنها: ضلال السعي، ومن ذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ [الزمر: ١٣] الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

وهكذا يتنوع الضلال، وتتسع دوائره لتشمل المعتقدات والتصرفات، مروراً بالطوارئ الفعلية، وانتهاءً بالطريق الذي يسلكه الناس للوصول إلى أغراضهم.

(٣)

أسباب الضلال:

- أسباب نفسية: ترجع إلى الكبر والعناد والتعنت والعجب.
- وأسباب دينية: مثل: الجحود بنعمة الله، واتباع الهوى، وحب الدنيا والاغترار بها، وارتكاب الذنوب والمعاصي.

(٤)

كيف نتجنب الضلال؟

إنَّ تجنب الوقوع في الضلال يكون بوسائل عديدة:

- على رأسها استعمال أدوات الهداية؛ للوصول من خلالها إلى الحق، ثم التمسك به؛ إذ ليس بعد الحق إلا الضلال كما عبّر القرآن الكريم: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

- كذلك تجنب الوقوع في الظلم؛ لأن الظلم يقود إلى الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

- كذلك تجنب اتباع الهوى والشهوات؛ لأنها تسوق الإنسان إلى المعاصي والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩].

(٥)

ومما سبق نستنتج:

أن للضلال قانوناً ينطبق على الإنسان إذا ما سلك المسالك التي توقع به في الضلال، وأنَّ بوسع الإنسان أن يجنب نفسه الإصابة بهذا المصير، وهذا يتطلب أن يبذل الإنسان جهداً في معرفة الحق والباطل، فيتمسك بالحق، ويتعد عن الباطل، ويتطلب أيضاً أن يجاهد في أن ينأى بنفسه بعيداً عن الضالين والمضللين، وعن التصرفات التي تؤدي إلى الضلال، لا سيما في هذا العصر الذي كثرت فيه صور الضلال، وتنوعت أدواته وأساليبه بحسب تنوع القدرات والإمكانات، الأمر الذي بات يفرض على المسلم المعاصر ما يمكن وصفه بالجهد العلمي والنقدي والأخلاقي؛ حتى ينجو من أثر الضلال والمضللين.



قانون المكر

(١)

المقصود بالمكر - لغةً - : التدبير الخفي المحكم، الذي يؤدي إلى حدوث أمر يكون بعيداً عن حسابان من وقع المكر به، كما يُقصد بالمكر - أيضاً - : اتخاذ الحيلة طريقة لتحقيق أمر من شخص^(١).

ويغلب استعمال المكر في السوء والشر والفساد؛ إذ الخير والصلاح والعون لا يحتاج من الإنسان إلى حيلة أو إلى تدبير خفي؛ لأن عمل الخير يُعَدُّ من فطرة الإنسان بخلاف السوء والشر.

ومن قوانين الله تعالى التي وردت في القرآن الكريم « المكر ».

وينسب المكر إلى الله تعالى كما في قوله: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، كما يُنسب إلى البشر، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل: ٥١].

(٢)

وفي سياق حديث القرآن الكريم عن المكر وصف الله تعالى مكره بأنه أسرع مكرًا كما في قوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس: ٢١].

ومقتضى ذلك أن المكر الإلهي هو الذي يغلب في النهاية، فلا يتحقق من مكر البشر شيء؛ لأن الله تعالى خير الماكرين وأسرع مكرًا من البشر.

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة (م ك ر)، (١٨٣ / ٥). والسنن الإلهية، للدكتور عبد الكريم زيدان (ص ٢٣٧).

ويؤكد ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلَهُمُ الْكَفْرُ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢]، فقد وصف الله تعالى الكفار من البشر بالمكر، ثم جعل مكرهم كأنه لم يكن؛ لأنه لا يمكن أن يُقَارَن مكر البشر بالمكر الإلهي، وفي موضع آخر من القرآن يذكر أن مكر البشر لا طائل من ورائه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

(٣)

وإذا كان المكر سلوكًا بشريًا، فإن القرآن كشف عن المصدر الذي يقوم به في حياة البشر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

والمقصود بالأكابر هنا هم الرؤساء والزعماء وأصحاب الصدارة في المجتمع، وإنما خصهم بالذكر؛ لأنهم أقدر على الفساد والإفساد، وأقوى من غيرهم على التأثير في عامة الناس وإقناعهم بمبادئهم ومعتقداتهم.

لكن السؤال الذي يضرخ نفسه هنا هو:

لماذا كان المجرمون أكابر المجتمع وأكابر مجرميها حسب الوصف القرآني؟

والجواب:

أنَّ ظهور هذه الفئة «الأكابر المجرمين» في المجتمع لم يكن من باب الصدفة أو المؤامرة أو التخطيط، وإنما كان من باب القصور الاجتماعي، وضعف القوى الاجتماعية؛ ذلك لأن أي مجتمع لا يخلو من وجود عناصر القوة والضعف فيه، ووجود الأكابر المجرمين هو الذي يمثل عنصر القوة، أما عنصر الضعف فهو عامة الناس الذين تسببوا بضعفهم في أن يسيطر عليهم الأكابر، ويتحكموا في مصائرهم.

ومن هنا؛ فإن المسؤول عن وجود الأكاير المجرمين ومنحهم كل هذه الإمكانيات في السيطرة والتأثير هو وجود القاعدة المجتمعية الضعيفة. ومع كون هذه القاعدة تنسم بالضعف فإن أكابر المجرمين لا يهدأ لهم بالٌ إلا بإحداث التدابير الخفية لضمان استمرارهم وبقائهم في مراكز النفوذ والتأثير؛ فيقومون بما سماه القرآن ﴿لِيَمَكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، لكن القرآن يعقب على ذلك بأنهم ﴿وَمَا يَمَكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]. وهذا من الأحكام التي يُنظر فيها إلى المآل والعاقبة؛ حيث ينتهي الأمر بتجريد هؤلاء الأكابر المجرمين من سلطانهم وسطوتهم ونفوذهم.

(٤)

ومن هنا نجد أنفسنا أمام قانون آخر يُعدُّ جزءاً من قانون المكر، وهو أن المكر السيئ لا يؤثر إلا على من يقومون به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنَ نَحْدِلِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنَ نَحْدِلِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

والمراد به أنه لا يعود وبأل ذلك المكر الذي يقومون به إلا عليهم، والآية هنا تشير إلى أمرين:

الأول: أن المكر السيئ سيظل حقيقة قائمة لا تتخلف ولا تتوقف.
الثاني: أن عاقبة المكر السيئ لا تصيب إلا أهله وصانعيه الذين يقفون وراءه، وذلك يشير إلى أن الأمور بعواقبها؛ فقد ينتصر أهل المكر السيئ بعض الوقت، لكنهم في النهاية خاسرون وهالكون، فالعاقبة للمتقين والأمور بخواتيمها؛ طبقاً لسنة الله في المكر.

(٥)

وفي ذلك كله طمأنة من الله تعالى للمؤمنين الذي يتعرضون للمكر الشديد على يد أعداء الاسلام، وطمأنة كذلك إلى أن الله تعالى مع المؤمنين في مواجهة

الماكرين الذين يستخدمون كل الحيل لصدد الناس عن سبيل الله وتعطيل مسيرة الدعوة، بالتآمر المستمر عليها وعلى قادتها، ولكن الله تعالى لن يترك المؤمنين وحدهم ضد الماكرين، وإنما سيكون معهم ما داموا معه بالتوكل عليه والثقة به والاهتداء بسنته في تدافع الحق والباطل؛ يقول الله تعالى:

- ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ٥٠].

- ﴿ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرًا لِلَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤].

- ﴿ وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ [الأففال: ٣٠].

- ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النمل: ٧٠].

(٦)

خلاصة ما سبق:

- ١ - مما سبق نستنتج أن المكر قانون من قوانين الله تعالى في حياة البشر وعلاقاتهم فيما بينهم، مثل سائر القوانين التي لا تتخلف أبداً، ولكن سريان حكمها يستلزم أن تتحقق أسبابها وشروطها، وأن تنتفي موانعها.
- ٢ - نستنتج أيضاً أن المكر الإلهي قائم في مواجهة المكر البشري، لكن الغلبة في النهاية تكون لمكر الله، وذلك ما يوجه رسالة إلى الماكين بأن يحذروا من مكر الله؛ لأنهم لن يقدروا على الوقوف أمامه، وأنهم خاسرون في النهاية، كما يوجه رسالة أخرى إلى الضعفاء المتقين الذين يترصد بهم الماكرون، أن عليهم ألا يخشوا بأس الماكين وتدبيرهم الخفي، وأن يكثرُوا من اللجوء إلى الله بالدعاء الذي يدفع عنهم كيد الكائدين ومكر الماكين، والأخذ بأسباب الحذر من مكرهم، والإكثار من الأعمال الصالحة.



قانون الاستدراج

(١)

من قوانين الله تعالى في البشر « الاستدراج »، وتدور معاني كلمة « الاستدراج » بين الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة؛ جاء في لسان العرب: « درَّجَه إلى كذا واستدرجه؛ أي: أدناه منه على التدريج، فتدرَّج هو. وفي التنزيل العزيز: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٢]؛ قال بعضهم: معناه سنأخذهم قليلاً قليلاً ولا نباغتهم؛ وقيل: معناه سنأخذهم من حيث لا يحتسبون؛ وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به فيركنون إليه ويأمنون به، فلا يذكرون الموت، فيأخذهم على غرتهم أغفل ما كانوا^(١)، وقد يكون الاستدراج أن يحط درجة بعد درجة إلى المقصود، قال الضحاك: « كلما جدّدوا لنا معصية جدّدنا لهم نعمة »، وقد يكون المراد به الإمهال وعدم المفاجأة بالأمر^(٢).

(٢)

وقد ورد قانون الاستدراج في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [١٨٣]، ومعنى الآية أن الله تعالى يستدرج الكفرة والعصاة بأن يرزقهم الصحة والنعمة، فيجعلون رزق الله لهم وسيلة إلى الإكثار من الكفر والمعاصي، وهم لا يعلمون أن في ذلك استدراجاً لهم.

ومما قد يساعدهم على هذا التفكير أن الله تعالى يعاملهم بالإمهال، فلا يُعَجِّل لهم بالعقوبة كما في قوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾، وحكمة الله في

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة (درج)، (٢/٢٦٨).

(٢) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص ١٦٧). وتفسير القرطبي (٥/٢٧٦).

هذا الإمهال هو أن يزدادوا إثماً، ولكنهم يفهمون الإمهال على أنه إرادة الخير والإكرام لهم.

وهذا هو الاستدراج؛ حيث بسط الله لهم في الرزق والنعم، فقابلوا ذلك بالمعاصي والكفر بنعمة الله، فزادهم الله من نعمه، فحسبوا أن هذا تكريماً لهم وقبولاً لأعمالهم، ولكن ذلك - في الحقيقة - كان كيداً من الله وتدييراً واستدراجاً لهم، وكان هذا الاستدراج سبباً للوقوع في الهلاك، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾؛ للدلالة على أن هذا الاستدراج لا يقوى أحد على دفعه أو مخالفة نتائجه.

والذي يساعد في فهم حقيقة الأمر هو سلوك الإنسان عندما تتوالى عليه النعم، فإذا قابل النعم بالشكر، والمقصود هنا شكر المنعم، والقيام بحقه عليه من وضعها في مكانها الصحيح واستعمالها فيما يُرضي الله؛ فإن النعم في هذه الحالة تكون من باب الإكرام والإنعام وليس الاستدراج، وأما إذا قابل النعم بالغرور والاستكبار وارتكاب المعصية؛ فإن ذلك يكون من باب الاستدراج.

كما ورد قانون الاستدراج أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٤٢) ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) ﴿فَلَمَّاسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤٤) ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٥].

ففي هذه الآيات ظهر قانون الاستدراج في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّاسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، والمراد أن الأرزاق والخيرات والنعم أحاطت بهم من كل جانب، وفتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى، وإملاء لهم - كما قال ابن كثير - ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الأرزاق

والأموال والأولاد ﴿أَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً﴾ من دون إنذار ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي؛ يائسون من كل خير أو نجاة ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أن الله تعالى استأصلهم، ولم يترك منهم أحداً، وخلص الأرض منهم ومن معتقداتهم الفاسدة، وأعمالهم الخبيثة^(١).

(٣)

كيف يتجنب الإنسان الوقوع في الاستدراج؟

إن المدخل الذي ذكره القرآن للاستدراج هو النعم التي ينبغي للإنسان أن يقابلها بالشكر والعرفان والامتنان والتواضع وعدم الاغترار بها، فكل نعمة يسوقها الله للإنسان يجب أن تُقابل بطاعة جديدة وشكر جديد، فإذا غفل عن الشكر فهو مُقَصِّرٌ وغافل، يُخْشَى عليه من أن ينزلق إلى طريق الاستدراج، أما إذا قابل النعمة بالمعصية والجحود والنكران، فإنه يكون قد دخل في دائرة الاستدراج^(٢).

ولذلك كان بعض الصالحين يخشون على أنفسهم الاستدراج إذا توالى عليهم النعم، مع احتمال تقصيرهم في شكرها، فيكون ذلك علامة على الاستدراج، وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما حُمِلَتْ إليه كنوز كسرى قال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَكُونَ مُسْتَدْرَجًا؛ فَإِنِّي أَسْمَعُكَ تَقُولُ: ﴿سَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] ^(٣).

(٤)

نستنتج مما سبق أن قانون الله في استدراج الإنسان فرداً كان أو مجتمعاً:

(١) تفسير ابن كثير (ص ٤٥٩).

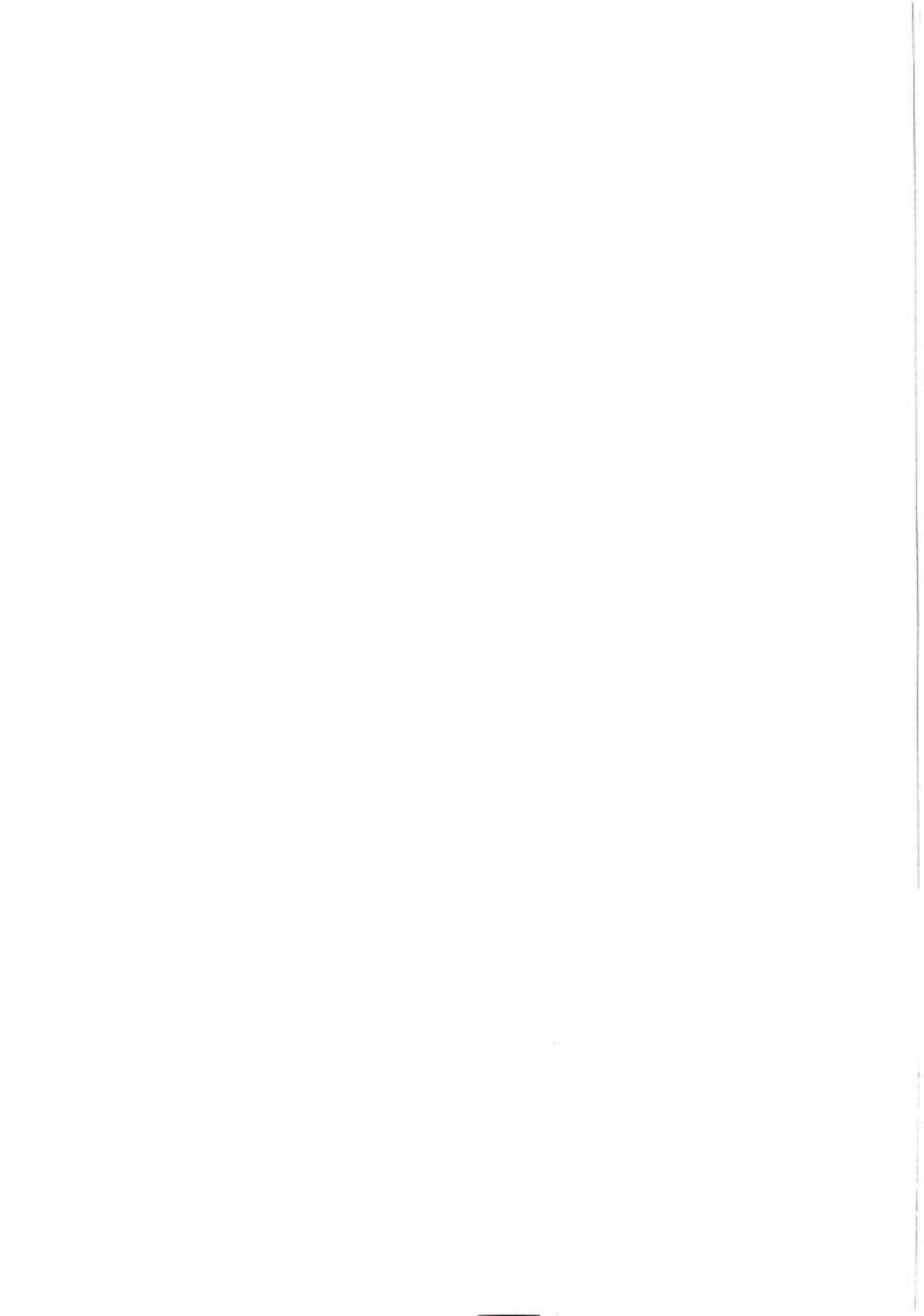
(٢) السنن الإلهية، للدكتور عبد الكريم زيدان (ص ٢٣٥) بتصرف.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب قسم الفيء والغنيمة، جماع أبواب تفريق ما أخذ من أربعة أخماس الفيء غير الموجف، باب الاختيار في التعجيل بقسمة مال الفيء إذا اجتمع، رقم (١٣٠٣٣).

ألا يعاقبهم على ذنوبهم بعد ارتكابها مباشرة، وإنما يمهلهم؛ ليعطيهم فرصة التذكر والإفاقة وتصحيح المسيرة، ثم يمتحنهم الله فيوسع عليهم في الأرزاق والخيرات، ويعطيهم ما يتمنون من النعم على وجه الاستدراج لهم، وبدلاً من أن يقابلوا نِعَمَ الله تعالى بالشكر عليها إذا بهم يقابلونها بالمزيد من المعاصي والذنوب، وهنا ينطبق عليهم هذا القانون، فيأتيهم الهلاك بسبب أعمالهم وتصرفاتهم السيئة.

ولهذا بموجب هذا القانون ينبغي على الإنسان ألا يغتر بنِعَمَ الله تعالى عليه، بل يخاف على نفسه من أن يكون استمرار النعم والعطايا الإلهية من باب الاستدراج، وليس من باب التكريم والإنعام.





المراجع

كتب التفسير وعلوم القرآن:

- تفسير ابن كثير، مؤسسة الرسالة (٢٠٠٠ م).
- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية (١٩٨٤ م).
- تفسير السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، ط ١ (١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م).
- تفسير الطبري، تحقيق: د. عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجر، ط ١ (١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م).
- التفسير العلمي، حنفي أحمد، دار المعارف.
- تفسير القرطبي، دار الشعب.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة.
- القاموس القويم للقرآن الكريم، إبراهيم أحمد عبد الفتاح، ط. مجمع البحوث الإسلامية (الأزهر)، (١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م).
- كيف نتعامل مع القرآن؟ الشيخ محمد الغزالي، دار نهضة مصر، القاهرة.
- المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، دار التعارف، بيروت.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، بيروت، ط ١ (١٤١٢ هـ).

كتب الحديث والآثار:

- الزهد الكبير، البيهقي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت (١٩٩٦ م).
- سنن ابن ماجه، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد ومحمد كامل، دار الرسالة، ط ١ (١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م).

- سنن الترمذي، ط. البابي الحلبي، مصر (١٩٧٥ م).
- السنن الكبرى، البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٢٠٠٣ م).
- صحيح البخاري، ط. بيت الأفكار الدولية، الرياض (١٩٩٨ م).
- صحيح مسلم، ط. بيت الأفكار الدولية، الرياض (١٩٩٨ م).
- كشف الخفاء، العجلوني، المكتبة العصرية (٢٠٠٠ م).
- مختصر استدراك الذهبي على مستدرك الحاكم، ابن الملقن، تحقيق: عبد الله اللحيدان، وسعد بن عبد الله آل حميد، دار العاصمة، الرياض، ط ١ (١٤١١ هـ).

- المستدرک، الحاكم، دار الكتب العلمية، بيروت (١٩٩٠ م).
- المسند، الإمام أحمد، مؤسسة الرسالة (٢٠٠٠ م).
- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، أبو الفضل زين الدين العراقي، دار ابن حزم، بيروت (٢٠٠٥ م).

كتب أخرى:

- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.
- الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن الميداني، دار القلم.
- أينشتين والنسبية، د. مصطفى محمود، ط. أخبار اليوم (٢٠٠٩ م).
- تاريخ الطبري، دار التراث، بيروت.
- التعريفات، الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م).
- تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، تحقيق: يعقوب عبد النبي، مراجعة: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- توينبي ونظريته التحدي والاستجابة: الحضارة الإسلامية نموذجاً، زياد عبد الكريم النجم، ط. الهيئة العامة السورية (٢٠١٠ م).
- السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة.

- سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، د. رمضان خميس زكي الغريب، بحث منشور على موقع المنتدى العالمي للوسطية [www.wasatyea.net]، (بتاريخ ١٧ فبراير ٢٠١٨ م).
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت.
- مجموع فتاوى ابن تيمية، ط. مجمع الملك فهد.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط ١ (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م).
- معجم مصطلحات العلوم الشرعية، وزارة الأوقاف السعودية، ط. مدينة الملك عبد العزيز (١٤٣٩هـ).
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط ٥ (١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م).



نُبذة عن المُولف

أ. د. محمد قاسم المنسي.

- حصل على ليسانس كلية دار العلوم (١٩٧٩م) بتقدير جيد جداً، وعين معيداً بالكلية في العام نفسه.

- حصل على الماجستير في الشريعة الإسلامية عام (١٩٨٦م) في موضوع (اتجاه التفسير الفقهي) بتقدير ممتاز.

- حصل على الدكتوراه في الشريعة الإسلامية عام (١٩٩٣م) في موضوع (تغير الظروف و أثره في اختلاف الأحكام في الشريعة الإسلامية) بمرتبة الشرف الأولى.

- عين مدرساً مساعداً بكلية دار العلوم عام (١٩٨٦م)، ثم مدرساً في عام (١٩٩٣م)، ورُقّي إلى درجة أستاذ مساعد (٢٠٠٧م)، ثم أستاذ بالكلية (٢٠١٤م). وعُين وكيلاً للكلية لشؤون التعليم والطلاب في (٢٠١٥م).

- عضو لجنة تحكيم البحوث العلمية في عدد من المجلات المتخصصة.
- ناقش وأشرف على ما يقرب من مائة وخمسين رسالة ماجستير ودكتوراه في الفقه والأصول والتفسير والحديث في جامعات: القاهرة، والأزهر، وجامعة المدينة العالمية، والجامعة الأمريكية المفتوحة بالقاهرة.

من مؤلفاته:

- تغير الظروف وأثره في اختلاف الأحكام، دار السلام (٢٠١٠م).

- في التفسير الفقهي، مكتبة الشباب (١٩٩٦م).

- دراسات في السنة وعلم الحديث، مكتبة النصر (١٩٩٧م).

- ضوابط استفتاء القلب في الشريعة الإسلامية، دار الهاني (٢٠٠٥م).

- غذاء الروح نافذة لتجديد الفكر الديني، دار السلام (٢٠١٨م).

- ما الذي ينقص المسلمين؟ مكتبة مدبولي الصغير (٢٠٠٥ م).
- مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، مكتبة النصر (١٩٩٨ م).

البحوث:

- عمل المرأة في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية، مجلة كلية دار العلوم (٣٧٤)، (٢٠٠٦ م).
- تحديد نهاية الحضانة، مجلة كلية دار العلوم (٤٢٤)، (٢٠٠٦ م).
- حقوق الطفل المحضون، مجلة كلية دار العلوم (٤٤٤)، (٢٠٠٧ م).
- وقوع الطلاق بين النية والتلفظ به، مجلة كلية دار العلوم، إصدار خاص (٢٠٠٩ م).
- دين النفقة الزوجية بين الأداء والإبراء، مجلة كلية دار العلوم، إصدار خاص (٢٠١١ م).
- مقاصد الشريعة في الإعلان العالمي لحماية البيئة، مجلة مركز البحوث والدراسات، جامعة القاهرة (٣١)، (٢٠١٢ م).
- القواعد الحاكمة لاجتهاد فقه الأقليات، مجلة مركز البحوث والدراسات، جامعة القاهرة (٣٩٤)، (٢٠١٣ م).
- البيع لاستيفاء حق الغير، مجلة كلية دار العلوم، جامعة المنيا (٢٨)، (٢٠١٣ م).
- مقاصد الشريعة في المذهب المالكي، مؤسسة الفرقان، لندن (٢٠١٢ م).
- التفسير القرآني بين الأخلاقي والتشريعي، مجلة التفاهم الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان (٤٥)، (٢٠١٤ م).
- دعم العمران ضابط ومقصد للفتوى، أعمال مؤتمر دور الفتوى في استقرار المجتمعات، دار الإفتاء المصرية، القاهرة (٢٠١٧ م).

وله نشاط اجتماعي وإعلامي:

فقد عمل خطيباً بمسجد الدكتور مصطفى محمود ومسجد الحصري
ومسجد نادي الصيد بالدقي، كما أنه يقدم في إذاعة القرآن الكريم المصرية
فتاوى شرعية في برنامج: بريد الإسلام.



هذا الكتاب

إذا كانت حركة الكون المادي
لا تستقيم من دون الشُّنن والقوانين الكونية،
فإن الحركة الاجتماعية لن يُكتَب لها الاستقامة إلا بالشُّنن
والقوانين الإلهية التي حكمت الكيان الإنساني في تاريخه الطويل.
ومن هنا تأتي أهمية تناول الشُّنن والقوانين القرآنية بالدراسة
والتحليل ودراسة تاريخ الأمم والحضارات السابقة، واكتشاف
عناصر بقائها أو سقوطها؛ لاكتشاف البناء المتكامل لمنظومة
القوانين الإلهية في المسار الإنساني؛ بغية الوقوف على القوانين
التي تتحكم في هذا المسار بأبعاده كافة، سواء الفردية
أم المجتمعية أم الحضارية...



DarAlSalam Designs



الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٠٨٠٢٨٧٦ (+٢٠٢)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ (+٢٠٢)

www.daralsalam.com
info@daralsalam.com

ISBN: 976-977-717-669-9



9 789777 176699 >